المدخل إلى طلب العلم

تأليف

زهران كاده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته الغر الميامين ومن سار على طريقهم إلى يوم الدين، أما بعد فهذا مدخل وجيز جمعته إسعافًا لطلاب العلم بدار القرآن محمد الطاهر بن عاشور راجيا أن يكون لهم عونا على سلوك طريق طلب العلم وأن يكشف لهم شيئا من معالم هذه الطريق التي من سلكها سهل الله له بذلك طريقا إلى الجنة كما في حديث النبي ﷺ.

وقد جعلت هذا المدخل على فصول بلغت الأحد عشر فصلا، وهي كالآتي:

. أسأل الله أن ينفع بهذا المدخل كاتبه وقارئه، وأرجو ممن قرأه فانتفع به أن يَذْكرَنا بدعوة صالحة بظهر الغيب، والله يتولانا جميعا بعنايته إنه سميع مجيب.

وكتب

زهران كاده

الفصل الأول
في فضل العلم وأهله

قال ابن الجوزي: ليس في الوجود شيء أشرفَ من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عُدم وقع الضلال[1].

وقال ابن الجوزي أيضا: لا خِصِّيصةَ أشرفُ من العلم، بزيادته صار آدم مسجودا له، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة، فأقرب الخلق من الله العلماء[2].

وقال الشوكاني: منزلة العلم وأهلِه هي المنزلة التي لا تُساميها منزلة وإن علَت، ولا تساويها رتبة وإن ارتفعت[3].

وقال الماوردي: اعلم أن العلم أشرف ما رَغِب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه يُثمر على صاحبه، وفضله ينمي على طالبه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُون﴾ فمَنع المساواةَ بين العالم والجاهل لِمَا قد خَصَّ به العالمَ من فضيلة العلم، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ ﴾ فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا، أو يفهم منه زجرا[4].

وقد قال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾، قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا بدرجات[5].

---

(1) صيد الخاطر (ص 112)

(2) صيد الخاطر (ص 172)

(3) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص 164)

(4) أدب الدنيا والدين (ص 36)

(5) رواه الدارمي، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

وقال الحافظ ابن حجر: قوله: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾، قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل إذِ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنويةَ في الدنيا بعلو المنزلة وحُسن الصِّيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة، وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخُزاعي - وكان عاملَ عمرَ على مكةَ - أنه لقيه بعُسْفانَ فقال له: من استخلفت ؟ فقال: استخلفت بنَ أبزى مولًى لنا، فقال عمر: استخلفت مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر: أمَا إن نبيكم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين، وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾، قال: بالعلم[1].

وقال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال ابن كثير: شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميعَ عبيدُه وخلقُه وفقراءُ إليه وهوالغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْك ﴾ الآيةَ، ثم قَرَن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام[2].

وقال القرافي: بدأ بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بالعلماء دون سائر خلقه، فيكون من عداهم دونَهم[3].

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري 141/1

(2) تفسير ابن كثير 24/2

(3) الذخيرة 41/1

وقال صديق حسن خان: فانظر كيف ثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وإجلالا ونُبْلا[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: الأمور العظيمة لا يُستشهد عليها إلا الخواص[2].

وقال الحافظ ابن حجر: قوله عز وجل: ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ واضحُ الدلالة في فضل العلم، لأن الله تعالى لم يأمر نبيَّه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفةَ ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه[3].

وفي السنن عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم[4]. قال القرافي: ولو لم تعلم الملائكة أن منزلته عند الله تستحق ذلك لما فعلته، فينبغي لكل أحد من الملوك فمن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم[5] اتباعا لملائكة الله تعالى وخاصَّة مُلْكه[6].

وفي الصحيحين عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

---

(1) أبجد العلوم 61/1

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 215)

(3) فتح الباري 141/1

(4) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(5) قال أبو معاوية الضرير: أكلت مع الرشيد يوما ثم صب على يديَّ رجل لا أعرفه، ثم قال الرشيد: تدري من يصب عليك ؟ قلت: لا، قال: أنا، إجلالا للعلم. تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 285)

(6) الذخيرة 43/1

قال ابن الجوزي: من أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله، ففي الحديث: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين[1].

وقال القرافي: القاعدة أن المبتدأ محصور في الخبر، والشرط اللغوي محصور في مشروطه لأنه سبب، فيكون المراد: الخير محصور في المتفقه، فمن ليس بمتفقه لا خير فيه[2].

وقال ابن تيمية: كل من أراد الله به خيرا لا بد أن يفقهه في الدين، فمن لم يفقهه في الدين لم يرد الله به خيرا[3].

وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين، أي: يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حُرم الخيرَ، وقد أخرج أبو يعلى حديث معاوية من وجه آخرَ ضعيفٍ وزاد في آخره: ومن لم يتفقه في الدين لم يبال الله به، والمعنى صحيح، لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيها ولا طالبَ فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخيرُ، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم[4].

وقد قال الزهري: ما عُبِد اللهُ بمثل الفقه[5]، وقيل للإمام مالك: ما أفضل ما يصنع العبد ؟ قال: طلب العلم[6].

قال ابن الجوزي في « التذكرة في الوعظ » - فضل العلم والعلماء -: من أحب أن يكون للأنبياء وارثا وفي مزارعهم حارثا فليتعلم العلم النافع، وهو علم الدين، ففي

---

(1) التذكرة في الوعظ (ص 55)

(2) الذخيرة 42/1

(3) مجموع الفتاوى 80/28 ، وانظر أيضا 10/16

(4) فتح الباري 165/1

(5) الفقيه والمتفقه 119/1

(6) ترتيب المدارك 61/2

الحديث: العلماء ورثة الأنبياء، وليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة، ومن أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله ففي الحديث: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ومن سأل عن طريق تُبلِّغه الجنةَ فليمش إلى مجلس العلم ففي الحديث: من سلك طريقا يلتمس فيها علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، ومن أحب ألا ينقطع عمله بعد موته فلينشر العلم بالتدوين والتعليم ففي الحديث: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[1].



(1) التذكرة في الوعظ (ص 55)

الفصل الثاني
في أن لذة العلم لا تضاهيها لذة أخرى

قال ابن الجوزي: اللذات كلها بين حسي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية[1].

وقال الشيخ جمال الدين القاسمي: لا لذة تُضاهي لذة العلم والحكمة واستنارة القلب[2].

ونقل ابن تيمية في « الرد على المنطقيين » عن ابن سينا أنه قال في « نمط البهجة والسعادة »[3]: إنه قد يسبق إلى الأوهام العامية أن اللذاتِ القويةَ المستعلية هي الحسيةُ، وأن ما عداها لذات ضعيفة وكلها خيالات غير حقيقة، وقد يمكن أن يُنبَّه مِن جملتهم من له تمييزٌ ما فيقال له: أليس ألذَّ ما يصفونه من هذا القبيل هو المنكوحات والمطعومات وأمورٌ تجري مَجراها، وأنتم تعلمون أن المتمكن من غلبةٍ ما ولو في أمر خسيس كالشطرنج والنرد قد يعرض له منكوح ومطعوم فيرفضه لِمَا يعتاضه من لذة الغلبة الوهمية، وقد يعرض منكوح ومطعوم لطالب العفة والرياسة مع صحة جسمه في صحبة حَشَمه فينفض اليد منهما مراعاة للحِشْمة، فيكون مراعاة الحشمة آثرَ وألذَّ لا محالة هناك من المنكوح والمطعوم، وإذا عرض للكرام من الناس الالتذاذ بإنعام يصيبون موضعه آثروه على الالتذاذ بمشتهًى حيوانيٍّ مُتنافَسٍ فيه، وآثروا فيه غيرهم على

---

(1) صيد الخاطر (ص 190)

(2) تاريخ الجهمية والمعتزلة (ص 8)

(3) وهو النمط الثامن من قسم الإلهيات من كتاب « الإشارات » لابن سينا.

أنفسهم مسرعين إلى الإنعام به، وكذلك فإنَّ كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه، ويستحقر هول الموت ومفاجأة العَطَب عند مناجزة المبارزين، وربما اقتحم الواحد على عدد دهم ممتطيا ظهر الخطر لما يتوقعه من لذة الحمد ولو بعد الموت كأن تلك تصل إليه وهو ميت، فقد بان أن **اللذات الباطنة مستعلية على اللذات الحسية**، وليس ذلك في العاقل فقط بل وفي العجم من الحيوانات، فإن من كلاب الصيد ما يقنص الصيد على الجوع ثم يمسكه على صاحبه وربما حمله إليه، والراضعة من الحيوانات تؤثر ما ولدته على نفسها وربما خاطرت محامية عليه أعظم من مخاطرتها في ذات حمايتها نفسها[1].

وقال ابن تيمية: والإنسان كلما كمل عقله كانت هذه اللذة – يعني الباطنة الروحية – أحب إليه من تلك اللذة – يعني الظاهرة الحسية –.

ثم ذكر الفلاسفة وقال: يقولون ما يقوله غيرهم من أن اللذات الباطنة أقوى وأشرف من اللذات الظاهرة، ويدعون الضرورة في إثبات لذة وراء اللذات الحسية الظاهرة[2].

وقد كان الفيلسوف « ديمقريط » يرى أنه أحبُّ إليه أن يجد تفسيرا عِلِّيا واحدا لأي شيء من أن يحوز على عرش الإمبراطورية الفارسية، وقد أعطت له حياته الروحية التي وهبها كلها للبحث الاستقرارَ النفسي وهدوء البال، وعاش ساخرا من الناس وتعلقهم بشهوات الدنيا، ومن أجل ذلك سمي بالفيلسوف الضاحك[3].

قال صديق حسن خان: الإعلام الثاني: في كون العلم ألذَّ الأشياء وأنفعها، وفيه: تعليمات:

(1) الرد على المنطقيين (ص 475 – 476)

(2) الرد على المنطقيين (ص 467)

(3) تمهيد للفلسفة (ص 175)

الأول: في لذته

اعلم أن شرف الشيء إما لذاته أو لغيره، والعلم حائزٌ الشرفين جميعا، لأنه لذيذ في نفسه فيطلب لذاته، لذيذ لغيره فيطلب لأجله.

أما الأول: فلا يخفى على أهله أنه لا لذة فوقها، لأنها لذة روحانية، وهي اللذة المحضة، وأما اللذة الجسمانية فهي دفع الألم في الحقيقة، كما أن لذة الأكل دفع ألم الجوع ولذةَ الجماع دفعُ ألم الامتلاء، بخلاف اللذة الروحانية فإنها ألذ وأشهى من اللذائذ الجسمانية، ولهذا كان الإمام الثاني محمد بن الحسن الشيباني يقول عندما انحلت له مشكلات العلوم: « أين أبناء الملوك من هذه اللذة » ، سيما إذا كانت الفكرة في حقائق الملكوت وأسرار اللاهوت[1]، ومن لذته التابعة لعزته أنه لا يقبل العزل والنصب مع دوامه لا مزاحمة فيه لأحد، لأن المعلومات متسعة مزيدة بكثرة الشركاء، ومع هذا لا ترى أحدا من الولاة الجهال إلا يتمنون أن يكون عزهم كعز أهل العلم إلا أن الموانع البهيمية تمنع عن نيله.

وأما اللذائذ الحاصلة لغيره: أما في الأخرى فلكونه وسيلةً إلى أعظم اللذائذ الأخروية والسعادة الأبدية، ولن يُتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل أيضا إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل سعادة الدارين هو العلم، فهو إذا أفضل الأعمال، وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع، فإنك ترى أغبياء الترك وأجلاف العرب وأراذل العجم يصادفون طباعهم مجبولةً على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة تجدها

(1) قال ابن الجوزي: والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغا من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد، والعُبَّاد المحققين كمعروف، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة. صيد الخاطر (ص 300)

توقر الإنسان بطبعها لشعورها بتمييز الإنسان بكل مجاوز لدرجتها حتى إنها تنزجر بزجره وإن كانت قوتها أضعاف قوة الإنسان[1].

وقال ابن القيم: لذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسانَ فيها الحيوانُ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلو في الأرض شيطانية يشارك صاحبَها فيها إبليسُ وجنوده، وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فإنها تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو في العلم والإيمان اللذين بهما كمالُ سعادة الإنسان، وأيضا فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت همًّا وغما وألما يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه، وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه لكن يحمله عليه مدواة ذلك الغم والهم، فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبالِ عليه والتنعم بذكره، فهذه هي اللذة الحقيقية[2].

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: وما أجملَ قولَ علامةِ العربية ورئيس أهل اللسان فيها أبي القاسم الزمخشري، يحكي تلذذ العلماء بإيقاظ ليلهم وطول سهرهم:

سَهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْل غانيةٍ وطيب عِناقِ

وتمايلي طربًا لحل عَوِيصة ... أشهى وأحلى مِن مُدامة ساقِ

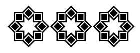
وصريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدُّوكاه والعُشّاقِ

---

(1) أبجد العلوم 65/1 - 66

(2) مفتاح دار السعادة 142/1

وألذُّ من نَقْر الفتاة لدُفِّها		نقري لأُلقيَ الرمْل عن أوراقي
أأبيت سهرانَ الدُّجى وتَبِيتُه		نوما وتبغي بعد ذاك لَحَاقي ؟![1]



(1) صفحات من صبر العلماء (ص 44)

الفصل الثالث
في أن طلب العلم أفضل من نوافل العبادات

قال رسول الله ﷺ: فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة وخير دينكم الورع. رواه الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة بن اليمان بلفظ: فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع. وقد صححه الألباني في صحيح الجامع.

قال الماوردي: قال رسول الله ﷺ: « فضل العلم خير من فضل العبادة »، وإنما كان كذلك، لأن العلم يبعث على فضل العبادة، والعبادة مع خُلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة[1].

وعن أبي بكر بن أبي موسى أن أباه أتى عمرَ بعد العشاء الآخرة، فقال: ما جاء بك يا أبا موسى الساعةَ ؟ قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا ليلا طويلا نتذاكر، قال أبو موسى: الصلاة، فقال عمر: إنا في صلاة، قال: فتذاكرا حتى كان قريبا من الفجر[2].

وقال يحيى بن أبي كثير: تعليم الفقه صلاةٌ، ودراسة القرآن صلاة[3].

وعن أبي هريرة وأبي ذر قالا: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا، وباب من العلم نُعَلِّمه عُمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا[4].

---

(1) أدب الدنيا والدين (ص 38)

(2) الفقيه والمتفقه 267/2

(3) الفقيه والمتفقه 103/1

(4) الفقيه والمتفقه 101/1

قال الغزالي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من إحيائها، وكذلك عن أبي هريرة ﷺ وأحمد بن حنبل رحمه الله[1].

وقال معمر: بلَغنا عن أبي الدرداء قال: مذاكرة للعلم ساعةً، خير من قيام ليلة[2].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة[3].

وقال رجل لأبي مِجْلَز وهم يتذاكرون الفقه والسنة: لو قرأت علينا سورة من القرآن، فقال: ما أنا بالذي أزعم أن قراءة القرآن أفضلُ مما نحن فيه[4].

وقال وهب بن منبه: مجلس يُتَنازع فيه العلمُ أحبُّ إليَّ من قدره صلاةً، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره[5].

وروى الخطيب البغدادي في « شرف أصحاب الحديث » عن المغيرة قال: ما طلب أحد هذا الحديثَ إلا قَلَّت صلاته.

قال الخطيب: خرج هذا الكلام من مغيرةَ على حال نفسه، ولعله كان يكثر صلاة النوافل، فإذا سعى في طلب الحديث إلى المواضع البعيدة، كان ذلك قاطعا له عن بعض نوافله، فقال هذا القول، ولو أمعن مغيرةُ النظرَ لَعَلِم أن سعيه في طلب الحديث أفضلُ من صلاته[6].

---

(1) إحياء علوم الدين 8/1

(2) الفقيه والمتفقه 102/1

(3) مغني المحتاج 99/1

(4) الفقيه والمتفقه 103/1

(5) رواه الدارمي، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(6) شرف أصحاب الحديث (ص 112)

وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت أحدا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة. قال الحافظ الذهبي: ما كان عليه من العلم ونشرِهِ أفضلُ من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله[1].

وقد قال مالك: المذاكرة في الفقه أفضل من الصلاة[2].

وقال الزركشي: قال الربيع: سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، قال الرافعي في شرح المسند: كأن المراد طلب علم الآثار ليؤخذ بها وتُتبع، وقد اشتهر عن الشافعي رضي الله تعالى عنه: علمك يتعداك وعملك لا يتعداك[3].

وقال إبراهيم بن هانئ: قلت لأحمد بن حنبل: أي شيء أحب إليك، أجلس بالليل أنسخ، أو أصلي تطوعا ؟ قال: إذا كنت تنسخ، فأنت تعلم به أمر دينك، فهو أحب إلي[4].

وقال البخاري: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: نزل أبو زرعة عندنا فقال لي أبي: يا بني قد اعتضت عن نوافلي بمذاكرة هذا الشيخ[5].

قال النووي في مقدمة « المجموع »: فصل في ترجيح الاشتغال بالعلم على الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات القاصرة على فاعلها

قال في آخره: فهذه أحرف من أطراف ما جاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة، وجاء عن جماعات من السلف ممن لم أذكره نحوُ ما ذكرته، والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضلُ من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح

(1) سير أعلام النبلاء 97/8

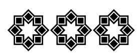
(2) الذخيرة للقرافي 347/13

(3) النكت على ابن الصلاح 20/1 - 21

(4) الفقيه والمتفقه 103/1

(5) تذكرة الحفاظ 105/2

ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعم صاحبَه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد به مقلدٌ له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعتُه ولا ينعكس، ولأن العلم تبقى فائدتُه وأثره بعد صاحبه والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة لله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية، أعني العلم الذي كلامنا فيه، فكان أفضلَ من النافلة، وقد قال إمام الحرمين رحمه الله في كتابه الغياثي: فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسد مسد الأمة ويُسقط الحرج عن الأمة وفرض العين قاصر عليه وبالله التوفيق[1].



(1) مقدمة المجموع 21/1 - 22

الفصل الرابع
في أن طلب العلم جهاد

قال رسول الله ﷺ يقول: من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له. رواه ابن حبان من حديث أبي هريرة، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. قال: وله شاهد من حديث سهل بن سعد عند الطبراني في « الكبير » عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من دخل مسجدي ليتعلم خيرا، أو ليعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو شيء لغيره »، ومن حديث أبي أمامة عند الحاكم والطبراني في « الكبير »، ولفظه عند الطبراني: « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته » [1]، قال الهيثمي في « المجمع »: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثوقون كلهم[2].

وقال أبو الدرداء: ما من أحد يغدو إلى المسجد لخير يتعلمه أو يعلمه إلا كتب له أجر مجاهد لا ينقلب إلا غانما[3].

وروى مالك في الموطأ عن سُمَيٍّ مولى أبي بكر أن أبا بكر بن عبد الرحمن كان يقول: من غدا أو راح إلى المسجد لا يريد غيره ليتعلم خيرا أو ليعلمه ثم رجع إلى بيته كان كالمجاهد في سبيل الله رجع غانما.

---

(1) كل من حديث سهل وحديث أبي أمامة حسن إسناده السيوطي في تنوير الحوالك 135/1

(2) انظر هامش صحيح ابن حبان 288/1

(3) جامع بيان العلم 153/1

قال ابن عبد البر: معلوم أن هذا لا يدركه بالرأي والاجتهاد لأنه قطع على غيب من حكم الله وأمره في ثوابه، وقد رُويت في هذا المعنى آثارٌ مرفوعة، وقد أوردنا من ذلك أبوابا في كتاب جامع بيان العلم وفضله كافية والحمد لله[1].

وقال المباركفوري في شرح حديث الترمذي: من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع[2]: (فهو في سبيل الله) أي في الجهاد لما أن في طلب العلم من إحياء الدين وإذلال الشيطان وإتعاب النفس كما في الجهاد[3].

قال أبو الدرداء: من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه[4].

قال المناوي: أصل الجهاد بالكسر لغة: المشقة، وشرعا: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق على مجاهدة النفس وعلى تعلم أمور الدين ثم العملِ بها ثم على تعليمها، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الكفار فباليد والمال والقلب، وأما الفساق فباليد ثم اللسان ثم القلب[5].

وقال ابن تيمية: تعلم العلم وتعليمه يدخل بعضه في الجهاد وأنه من أنواع الجهاد من جهة أنه من فروض الكفايات[6].

وقد صرح الحافظ ابن رجب الحنبلي بأن الاشتغال بالعلم أحدُ نوعي الجهاد[7].

---

(1) الاستذكار 302/2

(2) قال الترمذي: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه، قال الألباني: ولعله الصواب. السلسلة الضعيفة 55/5

(3) تحفة الأحوذي 340/7

(4) جامع بيان العلم 152/1

(5) فيض القدير 30/2

(6) الاختيارات (ص 426)

(7) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدي الساعة (ص 28)

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: قال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه[1].

وقال ابن حزم: والجهاد قد يكون باللسان والموعظة والحجة، ثم روى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم[2].

وقال العز بن عبد السلام: الجهاد ضربان: ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسِّنان[3]، وقال أيضا: قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه إلا أن سلاح العالم علمُه ولسانه كما أن سلاح الملك سيفُه وسِنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله وأظهر دينَ الله كان جديرا أن يحرُسَه الله بعينه التي لا تنام وبعزه الذي لا يضام ويحوطَه بركنه الذي لا يرام ويحفظَه من جميع الأنام ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض ﴾ [4].

وقال ابن تيمية: والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه[5].

وقال أيضا: الرادُّ على أهل البدع مجاهد حتى كان يحيى بن يحيى يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد[6].

وقال ابن الوزير: المحامي عن السنة الذابُّ عن حِماها كالمجاهد في سبيل الله تعالى يُعِد للجهاد ما استطاع من الآلات والعُدة والقوة كما قال الله سبحانه: وأعدوا لهم ما

---

(1) تفسير السعدي (ص 341)

(2) المحلى 207/11، والحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه الألباني.

(3) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي 223/8

(4) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي 226/8 - 227

(5) الاختيارات الفقهية (ص 608)

(6) مجموع الفتاوى 13/4

استطعتم من قوة، وقد ثبت في الصحيح أن جبريل عليه السلام كان مع حسان بن ثابت يؤيده ما نافح عن رسول الله في أشعاره، فكذلك من ذب عن دينه وسنته من بعده إيمانا به وحبا ونصحا له ورجاءَ أن يكون من الخلف الصالح الذين قال فيهم رسول الله: يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، والجهاد باللسان أحد أنواع الجهاد وسُبُلِه، وفي الحديث: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وقد أحسن من قال في هذا المعنى شعرا:

جاهدت فيك بقولي يوم يختصم الـ ... أبطال إذ فات سيفي يومَ يَمْتصِعُ

إنَّ اللسان لوصَّال إلى طرق ... في الحق لا تهتديها الذُّبَّل السُّرُع[1]

بل قال أبو هريرة: لأن أعلم بابا من العلم في أمر ونهي أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله عز وجل[2]، وكذا قال يوسف بن أسباط: باب من العلم تتعلمه أفضل من سبعين غزاة[3].

ومن تراجم أبي عمر بن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » قوله: تفضيل العلماء على الشهداء.

وقال علي بن أبي طالب: العالم أفضل من الصائم القائم الغازي في سبيل الله[4].

وعن علي الأزدي قال: سألت ابن عباس عن الجهاد، فقال: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد ؟ تبني مسجدا تعلم فيه القرآن وسنن النبي ﷺ والفقه في الدين[5].

---

(1) إيثار الحق على الخلق (ص 24)

(2) الفقيه والمتفقه 102/1

(3) تلبيس إبليس (ص 121)

(4) الفقيه والمتفقه 197/2

(5) جامع بيان العلم 263/1

وقال الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد العراقي: ما رأيت الحديث في الشام كلِّه إلا ببركة الحافظ عبد الغني، فإنني كل من سألته يقول: أول ما سمعت عليه، وهو الذي حرضني، وذكر جماعة من المحدثين، ثم ذكر عنه أنه كان يُفضِّل الرحلة للسماع على الغزو وعلى سائر النوافل[1].

وفي ترجمة الإمام سحنون من « ترتيب المدارك » للقاضي عياض: قال أشهب: ما قدم إلينا من المغرب مثله، ولقد حثه ابن القاسم على أن يقيم عنده يطلب العلم ويدع الخروج إلى الغزو لما استفرس فيه، وقال ابن القاسم لابن رشيد: قل لصاحبك يعني سحنون يقعد، فالعلم أولى به من الجهاد وأكثر ثوابا، ويعطي هذه الخيل التي قدم بها هو في مثل حاله يؤديها عنه، فما قدم إلينا من إفريقية مثل سحنون ولا ابن غانم[2].

وقال ابن القيم: والجهاد بالحجة والبيان مُقدَّم على الجهاد بالسيف والسِّنان، ولهذا أمر به تعالى في السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارا وتعذيرا، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾، وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين في المقام والمسير، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبياء الله ورسله وخاصَّتِه من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق[3].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 12/3

(2) ترتيب المدارك 48/4 - 49

(3) الكافية الشافية 16/1 - 17

ومن ألطف ما وقفت عليه في هذا الباب من المفاضلة ما ذكره حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر في « التمهيد »، قال: كتب عبد الله بن عبد العزيز العُمَري العابدُ إلى مالكٍ يحضه إلى الانفراد والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: إن الله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فرُبَّ رجلٍ فُتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة، ونشرُ العلم وتعليمُه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قُسم له، والسلام، هذا معنى كلام مالك لأني كتبته من حفظي وسقط عني في حين كتابتي أصلي منه(1).

قال الذهبي: ما أحسن ما جاوب العمريَّ عليه بسابق مشيئة الله في عباده، ولم يُفضِّل طريقته في العلم على طريقة العمري في التأله والزهد(2).



(1) التمهيد 185/7

(2) تاريخ الإسلام 329/11

الفصل الخامس
في أن غاية العلم العمل

قال الشاطبي: العلم الذي هو العلم المعتبر شرعا، أعني الذي مدح الله ورسولُه أهلَه على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحاملُ له على قوانينه طوعا أو كرها[1].

وقال ابن الجوزي: أمارة النجابة طلب العلم للعمل به[2].

فمن طلبه للعمل فتح له، قال سيد قطب: إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل، إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ – وإن كان هذا كله من محتوياته – إنما جاء ليكون منهاج حياة، منهاجًا إلهيًّا خالصًا[3].

قال الماوردي: وليكن من شيمته العملُ بعلمه، وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾، فقد قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاه ﴾: يعني أنه عامل بما علم، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « ويل لأقماع القول[4] ويل للمصرين » [1]، يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به، وروى عبد

(1) الموافقات 89/1

(2) صيد الخاطر (ص 70)

(3) معالم في الطريق (ص 18)

(4) قال الأزهري في تهذيب اللغة (قمع): قوله: ويل لأقماع القول، عني به الذين يسمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به، كما أن الأقماع لا تمسك شيئا مما يصب فيها، شبه آذانهم بها في كثرة ما يدخلها من المواعظ وهم مصرون على ترك العمل بها. وواحد الأقماع قمع، وهو الأداة التي يصب فيها ما يحقن في السقاء وغيره من الأوعية اهـ. قال زهران: وقد وقع في طبعة أدب الدنيا والدين [ويل لجماع] وهو خطأ.

الله بن وهب عن سفيان أن الخَضِر – على نبينا وعليه السلام – قال لموسى عليه السلام: يا ابنَ عمران تَعَلَّمِ العلم لتعمل به، ولا تتعلمْه لتحدث به فيكون عليك بَوْره ولغيرك نوره. وقال علي بن أبي طالب: إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم. وقال أبو الدرداء: أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول: قد عَلِمْتَ فماذا عَمِلت إذ عَلِمت ؟ وكان يقال: خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله. وقيل في منثور الحكم: لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به. وقال بعض العلماء: ثمرة العلم أن يُعمل به، وثمرة العمل أن يؤجر عليه. وقال بعض الصلحاء: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه أقام وإلا ارتحل. وقال بعض العلماء: خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع. وقال بعض الأدباء: ثمرة العلوم العمل بالعلوم[2].

وقال ابن الجوزي: ليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه، وإنما يَنال معناه من تعلمه للعمل به، فكلما دله على فضل اجتهد في نيله، وكلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه، فحينئذ يكشف العلم له سِرَّه، ويَسْهُل عليه طريقُه، فيصير كمجتذب يحث الجاذب، فإذا حركه عجل في سيره، والذي لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره ولا يكشف له عن سره، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه، فافهم هذا المثل وحَسِّن قصدك وإلا فلا تتعب[3].

---

(1) الحديث رواه أحمد في المسند عن عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(2) أدب الدنيا والدين (ص 76)

(3) صيد الخاطر (ص 172)

ثم ليعلم الطالب أن العلم وسيلةٌ وليس غايةً، فقد قال الشاطبي: العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصودا لنفسه من حيث النظرُ الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم، فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مُكلَّف بالعمل به[1].

وقال الشيخ زروق: شرف الشيء إما أن يكون بذاته، فيتجرد طلبه لذاته، وإما أن يكون لمنفعته، فيطلب من حيث يتوصل منه إليها به، وإما أن يكون لمتعلَّقه، فيكون الفائدة في الوصلة بمتعلقه، فمن ثم قيل: علم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعمل بلا علم جناية... فمن لم يظهر له نتيجة علمه في عمله فعلمه عليه لا له، وربما شُهِد بخروجه منه إن كان علمه مشروطا بعمله ولو في باب كماله، فافهم وتأمل ذلك[2].

وقال القرافي: القاعدة أن الوسيلة إذا لم يحصل مقصدها سقط اعتبارها[3].

وقال شيخه العز ابن عبد السلام: قاعدة: كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل[4].

وقال ابن الجوزي: إنما فَضُل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصودَ به، ويصير مَثَلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه[5].

وقال ابن الجوزي: وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه، وكأنه ما حصَّل شيئا، نعوذ بالله من الخِذلان[6].

---

(1) الموافقات 83/1

(2) قواعد التصوف (ص 25)

(3) الفروق 598/2 ، وفي بلغة السالك للصاوي 551/2 - 552: الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لم تشرع.

(4) قواعد الأحكام 143/2

(5) تلبيس إبليس (ص 116)

(6) صيد الخاطر (ص 385)

وقال ابن الجوزي: إذا رأى العلماء أنَّ لهم بالعلم فضلا صاح لسان الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العمل ؟ وقال أحمد بن حنبل: وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف ؟ وصح عن سفيان الثوري قال: ودِدت أن قطعت ولم أكتب الحديث، وقالت أم الدرداء لرجل: هل عملت بما علمت ؟ قال: لا، قالت: فلِمَ تستكثر من حجة الله عليك؟[1].

وقال أبو إسحاق الشيرازي: الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل، فالجاهل ما يرجو من نفسه ؟ فالله الله يا أولادي ! نعوذ بالله من علم يصير حجة علينا[2].

وقد قال رسول الله ﷺ: والقرآن حجة لك أو عليك[3]، قال السيوطي: أي: تنتفع به إن تلوتَه وعَمِلت به وإلا فهو عليك حجة[4].

وقال أبو إسحاق الشيرازي: العلم الذي لا يَنتفع به صاحبُه أن يكون الرجل عالما ولا يكون عاملا[5]، ولذلك قال ابن القيم: فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع[6].

وروى الدارمي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون بما يعلمون[7].

وقد قال بعضهم: العالم هو الذي يعمل بما يعلم[8]، وقال الشيخ بكر أبو زيد: ولا يغب عن بالك أن العالم لا يعد عالما إلا إذا كان عاملا[1].

---

(1) صيد الخاطر (ص 57)

(2) سير أعلام النبلاء 457/18

(3) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري.

(4) الديباج للسيوطي 12/2

(5) سير أعلام النبلاء 457/18

(6) مدارج السالكين 445/1

(7) قال حسين سليم أسد: رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(8) تهذيب اللغة للأزهري مادة (علم).

قال إبراهيم الخواص: ليس العالم بكثرة الرواية وإنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم[2].

وقال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء ولكنا سمعنا الحديث فرويناه، الفقهاء من إذا علم عمل[3].

وقال ابن القيم في قوله ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »: إذا أريد بالفقه العلمُ المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه في الدين فقد أريد به خيرا[4].

وقال ابن الجوزي: لما رأيت نفسي في العلم حسنا، فهي تُقَدِّمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتُفضِّل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيرا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح، إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصِحْت بها: فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم ؟ أما كان الرسول ﷺ سيدَ الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه ؟ أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج كثير البكاء ؟ أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع ؟ أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة ؟ أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دنيا غري غيري، أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق ؟ أما كان سعيد بن المسيب

---

(1) حلية طالب العلم (ص 144)

(2) الاعتصام 162/1

(3) تذكرة الحفاظ 66/1

(4) مفتاح دار السعادة 60/1

ملازما للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟ أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟ أما قالت ابنة الربيع بن خثيم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات، أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر ؟ أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة ؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون وقُطِع بي، أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟ أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف ؟ أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزمنى[1].

قال ابن حجر الهيتمي: رسوم العلوم الخالية عن الأعمال الصالحة في الحقيقة مقتٌ أي مقت، وغضب أي غضب، ومن ثم جاء في الأخبار الصحيحة من عقاب العلماء الذين لم يعملوا بعلمهم ما يُدهش اللبَّ ويحير الفكر[2].

ويقول الشيخ سلمان العودة: ما كانوا يعرفون العالم بالمطَّلِع أو الباحث أو الراوي، بل بالعامل المقبل على الله، المنصرف عما سواه، ومن أقوالهم في ذلك: « إنما العالم من خاف الله عز وجل » [3]، «إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا[4] الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه » [5]، «إنما الفقيه من يخاف الله » [6]، وسئل سعد

---

(1) صيد الخاطر (ص 84 – 86)

(2) الفتاوى الحديثية (ص 220)

(3) انظر الجامع لابن عبد البر (134/1).

(4) قال الشبلي: كل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم. قواعد التصوف (ص 49) زهران

(5) أخرجه الدارمي (294) عن الحسن البصري.

(6) انظر الجامع لابن عبد البر (134/1).

بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة ؟ فقال: « أتقاهم لربه » [1]. إذًا الفقه والتقوى قرينان لا يفترقان، ومن اتصف بالعلم والحفظ دون انتفاع بما يحمل، ولا تأثر عملي به، فليس بفقيه، كما أن العابد الجاهل المتخبط ليس بعابد على التحقيق، وهذان الصنفان فيهما شَبَه من اليهود والنصارى، فمن ضَلَّ من علماء الأمة ففيه شبه من اليهود، ومن ضل من عُبَّادها ففيه شبه من النصارى[2].

قال ابن القيم: من لم يعرف الحقَّ فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيرَه عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه، وقد أمرنا سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال لأنهم أمةُ جهلٍ، واليهود أخصَّ بالغضب لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم، ولهذا قال سفيان ابن عيينة: من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه، وفي المسند والترمذي من حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: اليهود مغضوب عليهم والنصاري ضالون[3].

وقال ابن كثير: فإنَّ طريقةَ أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا الغضبُ لليهود والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْه ﴾، وأخص أوصاف النصارى

(1) أخرجه الدارمي (295) من كلام سعد بن إبراهيم الزهري.

(2) ضوابط للدراسات الفقهية.

(3) إغاثة اللهفان 24/1، وانظر مدارج السالكين 34/1 – 35

الضلال كما قال تعالى عنهم ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار[1].

وقال ابن تيمية: من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءا فهو جاهل.

وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تُناقض حقيقةَ العلم، فيصير جهلا بهذا الاعتبار[2].

وقال ابن دقيق العيد: ولست أعني بالجهل ههنا عدمَ العلم بالحكم، بل إما هذا وإما أن يكون عبارةً عن فعل ما لا يسوغ وإن كان العلم بالحكم موجودا، لأنه قد يقال في هذا: إنه جهل، ويقال لفاعله: جاهل، والسبب فيه أن **الشيء يُنفَى لانتفاء ثمرته والمقصود منه**، فيقال: فلان ليس بإنسان، إذا لم يفعل الأفعال المناسبة للإنسانية[3]، ولما كان المقصود من العلم العملَ به جاز أن يقال لمن لا يعمل بعلمه: إنه جاهل غير عالم[4].

وقال ابن القيم: الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجَبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة، قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لما قال له قومه: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾، أي من المستهزئين، وقال

---

(1) تفسير ابن كثير 141/1

(2) اقتضاء الصراط المستقيم 257/1، وقال أيضا: لفظ الجهل يُعبَّر به عن عدم العلم، ويعبر به عن عدم العمل بموجَب العلم. مجموع الفتاوى 539/7

(3) قال ابن خلدون في المقدمة (ص 468): إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة.

(4) إحكام الأحكام (ص 122)

يوسف الصديق: ﴿ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِين ﴾ ، أي من مرتكبي ما حرمتَ عليهم، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَة ﴾، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة رضي الله عنهم أن كل من عصى الله فهو جاهل، وقال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلا إما لأنه لم ينتفع به فنُزِّل منزلة الجاهل وإما لجهله بسوء ما تجني عواقبُ فعله[1].

وقال السخاوي: على أنه يقال: ما يعرفه الفساق من العلم ليس بعلم حقيقة، لعدم عملهم به، كما أشار إليه التفتازاني في تقرير قول التلخيص: وقد يُنزَّل العالم منزلة الجاهل، وصرح به الشافعي في قوله:

ولا العلمُ إلا مع التُّقَى ولا العقل إلا مع الأدب[2]

وقال الشاطبي: علماء السوء هم الذين لا يعملون بما يعلمون، وإذا لم يكونوا كذلك، فليسوا في الحقيقة من الراسخين في العلم، وإنما هم رواة – والفقه فيما رووا أمر آخر – أو ممن غلب عليهم هوى غطى على القلوب والعياذ بالله[3].

وفي « قواعد التصوف » لزروق: قال مالك رحمه الله: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق[4].

(1) مدارج السالكين 469/1 – 470

(2) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي 18/2

(3) الموافقات 103/1

(4) قواعد التصوف (ص 15)

قال الذهبي: إنما التصوف والتأله والسلوك والسَّيْر والمحبة: ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبر، والقيام بخشية وخشوع، وصوم وقت، وإفطار وقت، وبذل المعروف، وكثرة الإيثار، وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزز على الكافرين، ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والعالم إذا عَرِي من التصوف والتأله فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زل عن سواء السبيل[1].

قال ابن تيمية: العلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق والنار حق، وهذا عِلمُه أوجب له محبةَ الله وخشيتَه والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخَرُ عِلمه لم يوجب ذلك، فعِلْم الأول أكملُ، فإن قوة المسبَّب دل على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم[2].

ويقول ابن تيمية أيضا: الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتُصلِحها، فمتى لم توجب زكاةَ النفس ولا صلاحَها فما ذاك إلا لأنها لم تَرسَخ في القلب، ولم تصر صفة ونعتا للنفس ولا صلاحا، وإذا لم يكن علم الإيمان المفروض **صفةً لقلب الإنسان لازمةً له** لم ينفعه، فإنه يكون بمنزلة حديث النفس وخواطر القلب[3].

وقال ابن خلدون: ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول **صفة منه تتكيف بها النفس**، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضا حصول ملكة

(1) سير أعلام النبلاء 410/15

(2) مجموع الفتاوى 234/7

(3) الصارم المسلول على شاتم الرسول 375/1

الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا، والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف، وشرحه أن كثيرا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفَرَّ عنه واستنكف أن يباشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بَعْدَ ذلك من مقامات العطف والحُنُوِّ والصدقة، فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقامُ العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف، ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخرُ أعلى من الأول، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها، فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه، لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دُفِع عنه، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده، وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به، والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورةً، وهو أوثق مبنًى من العلم الحاصل قبل الاتصاف، وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجئ العلم الثاني النافع في الآخرة، فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع، وهذا علمُ أكثرِ النظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة[1].

وقال الشيخ عمر محمود أبو عمر: وأنا أحاول جهدي أن أهرب من لفظ «العقيدة»، لأن هذا اللفظ ليس أثريا[2]، وثانيا: لأنني أعتبر أن هذا اللفظ هو انتصار

---

(1) مقدمة ابن خلدون (ص 583)

(2) زهران: قال طه جابر العلواني في هامش كتابه ابن تيمية وإسلامية المعرفة (ص 19): شاع استعمال مصطلح "العقيدة" للتعبير عن "الإيمان" في العصر العباسي كما ذهب إليه الأستاذ محمد المبارك – رحمه الله – في كتابه "الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية"، ص 75 . وقال الشيخ بكر أبو زيد في كتابه معجم المناهي اللفظية: في «مجلة مجمع اللغة العربية بمصر» بحثٌ للأستاذ عبد الصبور شاهين بعنوان: « حول كلمة عقيدة » استقرأ فيه عدم وجود

لمذهب المتكلمين في الفهم والتصور، وسبب ذلك أن هذا اللفظ يدل فقط على قضايا التصور التي ليس لها إفراز في الحركة والحياة، أو لِنَقُل هكذا يفهمه أصحاب هذا اللفظ، وهو يقابل لفظ الفكر بإطلاق المعاصرين له، والبديل الشرعي لهذا اللفظ هو لفظ «الإيمان» و«التوحيد»، وهما لفظان يجمعان في داخلهما أو في داخل كل واحد منهما قضايا التصور والتصديق، ومسائل الحركة والحياة، ولفظ العقيدة لا يقوم بهذا المطلوب، بل هو يدل فقط على مفاهيم التصديق فقط، وهذا أفرز في المسلمين أحكاما جديدة بدعية لم تكن عند الأوائل، وأهم هذه الإفرازات هو تضخيم جانب التصديق على جانب السلوك والحركة، وصار معيار الناس في الحكم على بعضهم البعض هو بمقدار معرفته، وليس بمقدار هداه، والمعرفة في دين الله تعالى لا قيمة لها إلا لكونها طريقا لكشف الطريق للسالك، لا لتبجح القاعد الكسول، ولكن لفظ « الهدى » يحمل جانب المعرفة وجانب العمل والسلوك المطابق لهذه المعرفة، فالناس يقولون الآن عن فلان: إن عقيدته صحيحة، ويقصدون إقراراته في مسائل التصديق والمعرفة، وهم بهذا لا يهتمون بما هو عليه من هدى أو ضلال في السلوك والعمل، والأصل الذي علمنا إياه القرآن، ونبهت السنة عليه كثيرا هو أن الرجل لا يكون مهتديا بعلم خاص لا يفرز عملا، ولا بعمل لم يسبقه العلم الصحيح، فكون « الرجل عقيدته صحيحة » لا يفهم منها أن هذا الرجل على هدى وصواب[1].

هذه اللفظة في الكتاب أو السنة، ولا في أُمهات معاجم اللغة، وأن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيري (م سنة 437 هـ) في «الرسالة» كما في أولها، ومن بعده أبو حامد الغزالي م سنة 505 هـ، جاء بمفردها (عقيدة)، وهي: على وزن فعِيلة جمعها: فعائل، مثل: صحيفة وصحائف قياساً، وأما من حيث معناها فهي مولدة، إذ لم تكن في الصدر الأول، والذي يسبقها في الاستعمال لفظ: اعتقاد، وهي تدل على إيمان القلب، ويسبقها أيضاً كلمة: معتقد، وكان ابن جرير الطبري م سنة 310 هـ –رحمه الله تعالى–: يذكر كلمتي: معتقد واعتقاد، وكما في مقدمة الشيخ أحمد شاكر لتفسيره. والله أعلم. قال الشيخ بكر: انظر المجلة 22/ 68– 74 لعام 1387 هـ. وكتاب في مجال العقيدة ، لغازي التوبة ص / 53 – 55.

(1) الجهاد والاجتهاد تأملات في المنهج (ص 51)

قال السنوسي في شرح أم البراهين: وقد نص العلماء على أنه لا بد من فهم معناها – يعني كلمة التوحيد – وإلا [لم][1] ينتفع بها صاحبها في الإنقاذ من الخلود في النار. قال الدسوقي محشيا: الحاصل أن المراد بفهم معناها التصديق بثبوت الوحدانية لله والرسالة لسيدنا محمد ﷺ ... **ولو كان بحيث لو سئل عن معناها لقال: لا أدري**[2].

وقال حافظ حكمي في « سلم الوصول »:

وبشروط سبعة قد قيدت   وفي نصوص الوحي حقا وردت

فإنه لم ينتفع قائلها   بالنطق إلا حيث يستكملها

وقال في شرحه « معارج القبول »: « لم ينتفع قائلها » أي: قائل لا إله إلا الله «بالنطق» أي: بنطقه بها مجردا « إلا حيث يستكملها » أي: هذه الشروط السبعة، ومعنى استكمالها اجتماعُها في العبد والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشيء منها، **وليس المراد من ذلك عَدُّ ألفاظها وحفظُها**، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعدُدها، لم يحسن ذلك، وكم حافظٍ لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله، والله المستعان[3].

وقال الدهلوي فيمن اعتقد التوحيد والتعظيم على وجههما، ولكن ترك الامتثال لما أُمِر به: مثله كمثل رجل عرف الشجاعة ما هي وما فائدتها، ولكن لا يستطيع

---

(1) زيادة من عندي يقتضيها السياق. زهران

(2) شرح أم البراهين مع حاشية الدسوقي (ص 304) ، قال الحصني في كفاية الأخيار (ص 494): لو قيل لرجل: ما الإيمان ؟ فقال: لا أدري، كفر، كذا نقله الرافعي عن أصحاب أبي حنيفة وأقرهم وتبعه النووي، قلت: هذه المسألة وأشباهها كثيرة الوقوع، وفي التكفير بذلك نظر لا يخفى. قال زهران: لعل النظر المراد هو ما ندندن حوله في هذه السطور، والله أعلم.

(3) معارج القبول 418/2

الاتصاف بها، لأن حصول نفس الشجاعة غيرُ حصول صورتها في النفس، وهو أحسن حالا ممن لا يعرف معنى الشجاعة أيضا[1].

وقال الغزالي: لا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي، إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريضُ درجاتِ الصحة ويعلمَ العالم الفاسق درجاتِ العدالة وإن كان خاليا عنها، فالعلم شيءٌ ووجود المعلوم شيءٌ آخر، فلا كلٌّ من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا[2].

وقال الغزالي أيضا: فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا[3].

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله فإنها هي التي لا يُقبل غيرُها ولا يُرحم إلا أهلُها ولا يُثاب إلا عليها، **وإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل**[4].



(1) حجة الله البالغة 149/1

(2) إحياء علوم الدين 88/1

(3) المنقذ من الضلال (ص 172)

(4) البداية والنهاية 201/9

الفصل السادس
في حكم طلب العلم

قال القرافي: أفتى أصحابنا رضي الله عنهم بأن العلم على قسمين: فرض عين وفرض كفاية، وحكى الشافعي في رسالته والغزالي في إحياء علوم الدين الإجماع على ذلك[1].

قلت: وكذا حكاه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » فقال: قد أجمع العلماء على أنَّ من العلم ما هو فرض متعيِّن على كل امرئ في خاصَّة نفسِه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع[2].

قال النووي: الأول: **فرض العين**: وهو تعلم المكلَّف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعلُه إلا به، ككيفية الوضوء والصلاة ونحوهما[3].

قال الإمام أحمد: الذي يجب على الإنسان من تعليم القرآن والعلم ما لا بد منه في صلاته وإقامة دينه، وأقل ما يجب على الرجل من تعليم القرآن فاتحة الكتاب وسورتان[4].

وقال الشيخ منصور البُهُوتي: قال أحمد: ويجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: فكل العلم يقوم به دينه، قال: الفرض الذي يجب عليه في نفسه لا بد له من طلبه، قيل: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله: صلاته، وصيامه، ونحو

---

(1) الذخيرة 143/1

(2) جامع بيان العلم وفضله 56/1

(3) مقدمة المجموع 24/1

(4) طبقات الحنابلة 104/1

ذلك، ومراد أحمدَ ما يتعين وجوبه، وإن لم يتعين ففرض كفاية، ذكره الأصحاب، فمتى قامت طائفة بعلم لا يتعين وجوبه قامت بفرض كفاية[1].

وقال ابن رشد: طلب العلم والتفقه في الدين من فروض الكفاية كالجهاد إلا ما لا يسع الإنسانَ جهلُه من صفة وضوئه وصلاته وصومه وزكاته إن كان ممن تجب عليه الزكاة. وسئل مالك: أواجب طلب العلم ؟ فقال: أما على كل الناس فلا[2].

وقال ابن تيمية: طلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين مثل طلب كل واحد علم ما أمره الله به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان[3].

وقال برهان الإسلام الزرنوجي في كتابه « تعليم المتعلم طريقَ التعلم »: إنه لا يُفترض على كل مسلم طلبُ كل علم وإنما يفترض عليه طلب علم الحال، أي: علم ما يقع له في حاله من الصلاة والزكاة والصوم والحج[4].

وقال القرافي في « الذخيرة »: فرض العين الواجب على كل أحد هو علمه بحالته التي هو فيها[5]، مثاله: رجل أسلم ودخل في وقت الصلاة فيجب عليه أن يتعلم الوضوءَ والصلاة، فإن أراد أن يشتري طعاما لغذائه قلنا: يجب عليه أن يتعلم ما يعتمده في ذلك، أو أراد الزواج وجب عليه أن يتعلم ما يعتمده في ذلك، أو إن أراد أن يؤدي شهادة فيجب عليه أن يتعلم شروط التحمل والأداء، فإن أراد أن يصرف ذهبا فيجب عليه أن يتعلم حكم الصرف، فكل حالة يتصف بها يجب عليه أن يعلمَ حكمَ الله

---

(1) كشاف القناع 412/1

(2) التاج والإكليل للمواق 538/4

(3) مجموع الفتاوى 80/28

(4) أبجد العلوم 78/1

(5) قال ابن وهب: قيل لمالك: ما تقول في طلب العلم ؟ قال: حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي، فالزمه. سير النبلاء 97/8

تعالى عليه فيها، فعلى هذا لا ينحصر فرض العين في العبادات ولا في باب من أبواب الفقه كما يعتقد كثير من الأغبياء[1].

وقال القرافي أيضا في « الفروق »: الغزالي حكى الإجماع في إحياء علوم الدين والشافعي في رسالته حكاه أيضا في أن المكلف لا يجوز له أن يُقْدِم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، فمن باع وجب عليه أن يتعلم ما عينه الله وشرَعه في البيع، ومن آجر وجب عليه أن يتعلم ما شرعه الله تعالى في الإجارة، ومن قارض وجب عليه أن يتعلم حكم الله تعالى في القراض، ومن صلى وجب عليه أن يتعلم حكم الله تعالى في تلك الصلاة، وكذلك الطهارة وجميع الأقوال والأعمال، فمن تعلم وعمل بمقتضى ما علم أطاع الله تعالى طاعتين، ومن لم يعلم ولم يعمل فقد عصى الله معصيتين، ومن علم ولم يعمل بمقتضى علمه فقد أطاع الله تعالى طاعة وعصاه معصية.

ويدل على هذه القاعدة أيضا من جهة القرآن قولُه تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْم ﴾، ومعناه ما ليس لي بجواز سؤاله علم، فدل ذلك على أنه لا يجوز له أن يقدم على الدعاء والسؤال إلا بعد علمه بحكم الله تعالى في ذلك السؤال وأنه جائز، وذلك سبب كونه عليه السلام عُوتِب على سؤال الله عز وجل لابنه أن يكون معه في السفينة لكونه سأل قبل العلم بحال الولد، وأنه مما ينبغي طلبه أم لا، فالعتب والجواب كلاهما يدل على أنه لا بد من تقديم العلم بما يريد الإنسان أن يشرع فيه.

إذا تقرر هذا فمثله أيضا قوله تعالى ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾، نهى الله تعالى نبيه عليه السلام عن اتباع غير المعلوم، فلا يجوز الشروع في شيء حتى يُعلَم،

---

(1) الذخيرة 143/1 ، وقال الدسوقي: وأما الواجب العيني فاعلم أنه لا ينحصر في معرفة باب معين بل يجب على كل مكلف أن لا يُقْدِم على أمر من طهارة وصلاة وغيرهما حتى يعلم حكم الله فيه ولو بالسؤال عنه. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير 174/2

فيكون طلب العلم واجبا في كل حالة، ومنه قوله عليه السلام: طلب العلم فريضة على كل مسلم، قال الشافعي رحمه الله: طلب العلم قسمان فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين علمك بحالتك التي أنت فيها وفرض الكفاية ما عدا ذلك[1].

قال علي بن الحسن بن شقيق: سألت عبد الله بن المبارك: ما الذي يجب على الناس من تعليم العلم ؟ قال: أن لا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم، يسأل ويتعلم، فهذا الذي يجب على الناس من تعليم العلم، وفسره قال: لو أن رجلا ليس له مال لم يكن عليه واجبا أن يتعلم الزكاة، فإذا كان له مائتا درهم وجب عليه أن يتعلم كم يُخرِج ومتى يخرج وأين يضع، وسائر الأشياء على هذا. قال الخطيب البغدادي: وهكذا روي عن علي بن أبي طالب أنه أمر تاجرا بالفقه قبل التجارة[2]، وذلك أن رجلا جاءه فقال: يا أميرَ المؤمنين أريد أن أتجر، فقال له: الفقه قبل التجارة، إنه من تجر قبل أن يفقه ارتطم في الربا ثم ارتطم[3].

قال القرافي في « الذخيرة »: وعلى هذا القسم يحمل قوله ﷺ: « طلب العلم فريضة على كل مسلم[4] » [5].

---

(1) الفروق 593/2 - 594

(2) الفقيه والمتفقه 171/1

(3) الفقيه والمتفقه 172/1

(4) قال إسحاق بن راهويه: طلب العلم واجب ولم يصح فيه الخبر إلا أن معناه أن يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته وزكاته إن كان له مال وكذلك الحج وغيره. قال ابن عبد البر: يريد إسحاق – والله أعلم – أن الحديث في وجوب طلب العلم في أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل ولكن معناه صحيح عندهم وإن كانوا قد اختلفوا فيه اختلافا متقاربا على ما نذكره ها هنا إن شاء الله. جامع بيان العلم 52/1 ، وقد سئل الفضيل بن عياض عن قوله صلى الله عليه وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم، فقال: كل عمل كان عليك فرضا فطلب علمه عليك فرض، وما لم يكن العمل به عليك فرضا فليس طلب علمه عليك بواجب. معالم السنن للخطابي 186/4، وقال ابن الحاج في المدخل: قوله عليه الصلاة والسلام: طلب العلم فريضة على كل مسلم. قال العلماء المحققون في معناه: ما وجب عليك عمله، وجب عليك العلم به.

(5) الذخيرة 143/1

قال النووي: القسم الثاني: **فرض الكفاية:** وهو تحصيل ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما والأصول والفقه والنحو واللغة والتصريف ومعرفة رواة الحديث والإجماع والخلاف[1].

وقال القرافي: وأما فرض الكفاية فهو العلم الذي لا يتعلق بحالة الإنسان، فيجب على الأمة أن يكون منهم طائفة يتفقهون في الدين ليكونوا قدوة للمسلمين حفظا للشرع من الضياع[2].

قال الخطيب البغدادي: قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾، فجعلهم فرقتين: أوجب على إحداهما الجهادَ في سبيله، وعلى الأخرى التفقهَ في دينه، لئلا ينقطع جميعهم إلى الجهاد فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلب العلم فيغلب الكفار على الملة، فحَرَس بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحَفِظ شريعة الإيمان بالمتعلمين[3].

وقال ابن عاشور: دعا الله المؤمنين إلى توجيه طوائفَ من جميع فِرَقهم لأجل التفقه في الدين، أي: التفهم فيه، إتماما لمقصد الشريعة من بث الإصلاح في العقيدة والتفكير والعمل، وابتداهم بقوله ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ الصادر في صورة معذرتهم عن تخلف فريق منهم عن طلب العلم إذ لا يصلح الحال برحلة جميع الناس لطلب الفقه في الدين، لأن نظام العمران لا يستقيم بتوجه كل الناس إلى عمل واحد ولو كان ذلك العمل أشرفَ الأعمال مثل طلب العلم، ولأن الأهلية لهذا التفقه لا تتوفر في جميع الناس، وأكد هذا بصيغة الجحود وهي ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ﴾ الدال في

(1) مقدمة المجموع 26/1

(2) الذخيرة 144/1

(3) مقدمة الفقيه والمتفقه 69/1

أصل التركيب على معنى أنهم ما وُجدوا وجودا معلَّلا بنفرهم كافة، وهذا الجحود يستتبع إفادة أن النفْر لطلب العلم هو مشتهى جميعهم ومَظِنَّةُ أن يهجُس أو أن قد هجس في نفوسهم فكانت بحاجة إلى التنبيه على أنهم ما وجدوا لأجل ذلك[1].

وقال ابن عاشور أيضا في « التحرير والتنوير »: وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بثُّ علومه وآدابه بين الأمة وتكوينُ جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلِّهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان، ولذلك لم يثبت ملك اللَّمتونيين في الأندلس إلا قليلا حتى تقلص، ولم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها ووكلوا أمر الدولة إليهم.

وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرَّضت فريقا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله ﷺ في الغزو لمصلحة نشر الإسلام ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله ﷺ للتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام.

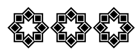
ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم إذِ افتُتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ

---

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (ص 92 - 93)

الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ الآية، وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك إذ يقول: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ [1].

هذا وقد ذكر النووي قسما ثالثا لأقسام حكم طلب العلم، فقال: **القسم الثالث**: **النفل**: وهو كالتبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية، وكتعلم العامي نوافل العبادات لغرض العمل لا ما يقوم به العلماء من تمييز الفرض من النفل، فإن ذلك فرض كفاية في حقهم والله أعلم[2].



---

(1) التحرير والتنوير 11/58 - 59

(2) مقدمة المجموع 1/27

الفصل السابع
في أن الأدب قبل الطلب

قال ابن قتيبة: ونحن نستحبُّ لمن قَبِل عنا وائتمَّ بكتبنا أن يؤدِّب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذِّب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصونَ مُروءَته عن دناءة الغِيبة، وصِناعتَه عن شَيْن الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللحنَ وخَطَل القول - شنيعَ الكلام ورَفَثَ المزْح[1].

قال أحمد بن أبي سليمان: يا طالب العلم، إذا طلبت العلم، فاتخذ له قبل طلبه أدبا، تستعين به على حمله[2].

وقال الإمام مالك: كانت أمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعةَ فتعلمْ من أدبه قبل علمه[3].

وقال خالد بن نزار: سمعت مالك بن أنس يقول لفتًى من قريش: يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم[4].

وقال ابن وهب: ما تعلمت من أدب مالك أفضلُ من علمه[5].

وقال الإمام أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومجالستُهم أحب إليَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم[6].

---

(1) أدب الكاتب (ص 14)

(2) ترتيب المدارك 369/4

(3) ترتيب المدارك 130/1

(4) حلية الأولياء لأبي نعيم 330/6

(5) جامع بيان العلم 509/1

(6) جامع بيان العلم 509/1 - 510

وقال إبراهيم: كنا نأتي مسروقا فنتعلم من هديه ودَلِّه[1].

وقال الحسين بن إسماعيل: سمعت أبي يقول: كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زُهاءَ خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسْن الأدبِ وحُسْنَ السَّمْت[2].

وقال ابن رجب في ترجمة الحافظ أبي البركات عبد الوهاب الأنماطي: قال ابن الجوزي: كنت أقرأ عليه الحديثَ وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته[3].

وقال المأمون: نحن إلى أن نُوعظ بالأعمال أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال[4].

وقد قال علي ﷺ: من نصب نفسه للناس إماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه[5].

وقال السفاريني: اعلم أن تعلم الآداب وحسن السمت والقصد والحياء والسيرة مطلوب شرعا وعرفا، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: إن الهدي الصالح والسمت والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة[6]. وقال النخعي: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وصلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه. وقال عمر ﷺ: تأدبوا ثم تعلموا. وقال ابن عباس: اطلب الأدب فإنه زيادة في العقل ودليل على المروءة، مؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ومال عند القلة. رواه الأصبهاني في منتخبه. وقال أبو عبد الله البلخي: أدب العلم

(1) جامع بيان العلم 510/1

(2) شرح منتهى الإرادات للبهوتي 17/1

(3) ذيل طبقات الحنابلة 457/1

(4) جامع بيان العلم 696/1

(5) المستطرف في كل فن مستظرف 48/1

(6) قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

أكثر من العلم. وقال الإمام عبد الله بن المبارك: لا ينبُل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب. ذكره الحاكم في تاريخه. ويروى عنه أيضا أنه قال: طلبت العلم فأصبت منه شيئا، وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا. وقال بعض الحكماء: لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب. وكان يقال: العون لمن لا عون له الأدب. وقال الأحنف بن قيس: الأدب نور العقل كما أن النار نور البصر[1].

وقال القرافي: اعلم أن قليل الأدب خير من كثير من العمل، ولذلك هلك إبليس وضاع أكثر عمله بقلة أدبه، فنسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة، وقال الرجل الصالح لابنه: يا بني اجعل عملك مِلْحا وأدبك دقيقا، أي ليكن استكثارك من الأدب أكثر من استكثارك من العمل لكثرة جدواه ونفاسة معناه[2].

قال الشيخ بكر أبو زيد في « حلية طالب العلم »: لقد تواردت موجبات الشرع على أن التحلي بمحاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، والهدي الحسن، والسَّمت الصالح: سمةُ أهل الإسلام، وأن العلم – وهو أثمن درة في تاج الشرع المطهر – لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته، ولهذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما على وجه العموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص، كآداب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهكذا... والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي، وقد كان العلماء السابقون يلقنون الطلاب في حلق العلم آداب الطلب، وأدركت خبر آخر العقد في ذلك في بعض حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف، إذ كان بعض

(1) غذاء الألباب 36/1

(2) الفروق 1415/4

المدرسين فيه، يدرس طلابه كتاب الزرنوجي (م سنة 593 هـ) رحمه الله تعالى، المسمى: « تعليم المتعلم طريق التعلم[1] »[2].

قال الإمام مالك: إن حقًّا على من طلب العلم أن يكون له وَقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضى قبله[3].

ورأى الفضيل بن عياض قوما من أصحاب الحديث يمرحون ويضحكون، فناداهم: مهلا يا ورثة الأنبياء، مهلا ثلاثا، إنكم أئمة يقتدى بكم[4].

وقال الأوزاعي: كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يقتدى بنا، خشيت ألا يسعنا التبسم[5].

وقال الخطيب البغدادي: يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعبث والتبذل في المجالس بالسخف، والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر ويزيل المروءة[6].

وقال ابن القيم: قال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطا في النجاة، أو نحو هذا من الكلام[7].

---

(1) طبع مرارا، وهو مع إفادته فيه ما يقتضي التنويه، فليعلم، والله أعلم.

(2) حلية طالب العلم (ص 138)

(3) تاريخ الإسلام للذهبي 331/11

(4) سير أعلام النبلاء 435/8

(5) سير أعلام النبلاء 132/7

(6) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 156/1

(7) مدارج السالكين 26/2

الفصل الثامن
في ذكر بعض شروط التحصيل وآدابه

1 – الإخلاص وتحسين النية

2 – الاستعانة بالله والتوكل عليه سبحانه

3 – الذهن الثاقب

4 – الزمان الطويل

5 – الكفاية

6 – المعلم الحاذق

7 – الشهوة

8 – كثرة العمل مع الصبر

9 – علو الهمة

10 – حفظ الوقت

11 – قطع العلائق

12 – التدرج بالترقي من الأدنى إلى الأعلى وتقديم المهم

13 – الرحلة وكثرة الشيوخ

14 – الأدب مع الشيخ

15 – تقييد العلم

16 – العناية بالصحة

1 - الإخلاص وتحسين النية

قال القرافي: (الفصل الثاني في آدابه) اعلم أن أعظمَها الإخلاصُ لله سبحانه وتعالى، فإنه إذا فُقِد انتقل العلم من أفضل الطاعات إلى أقبح المخالفات، قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [1].

قال العز بن عبد السلام في تعريف الإخلاص: هو أن يَقصِد بطاعته وجهَ الله ولا يريد بها سواه، فإن قصد بها سواه كان مرائيا، سواء قصد الناس على انفرادهم أو قصد الرب والناس جميعا[2].

وقال ابن القيم: الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد[3].

قال ابن الجوزي: ينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده، إذ فُقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال[4]، وقال أيضا: الصدق في الطلب منارٌ أين وُجد يدل على الجادة، وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يُراد، فلا حول ولا قوة إلا بالله[5].

وقال الشوكاني: أول ما على طالب العلم أن يحسن النية ويصلح طويته ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له والأمرَ الذي أراده هو الشريعة التي شرعها الله سبحانه لعباده وبعث بها رسله وأنزل بها كتبه، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا أو يخلطَه بما يكدره من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظَّفَر بشيء من المال أو يصل به إلى نوع من الشرف أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا

---

(1) الذخيرة 47/1

(2) قواعد الأحكام 221/1

(3) مدارج السالكين 527/1

(4) صيد الخاطر (ص 323)

(5) صيد الخاطر (ص 367)

أو جاه يحصله به، فإن العلم طيب لا يقبل غيره ولا يحتمل الشركة، والروائح الخبيثة إذا لم تغلب على الروائح الطيبة فأقل الأحوال أن تساويها، وبمجرد هذه المساواة لا تبقى للطيب رائحة، والماء الصافي العذب الذي يستلذه شاربه كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح فضلا عن غير الماء من القاذورات بل تنقص لذته مجرد وجود القذاة فيه ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات، وهيهات ذاك، فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة فقد أراد الشَّطط وغلِط أقبحَ الغلط، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلها وأعلاها، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾، فقيد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها، وصح عن رسول الله ﷺ حديث: إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى[1].

وقال ابن جماعة: الثاني: حسن النية في طلب العلم، بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة وتنويرَ قلبه وتحلية باطنه والقرب من الله تعالى يوم القيامة والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله، قال سفيان الثوري: « ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي »، ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال، ومباهاة الأقران، وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس ونحو ذلك، فيستبدل الأدنى بالذي هو خير، قال أبو يوسف رحمه الله: « يا قوم أريدوا بعلمكم الله تعالى فإني لم أجلس مجلسا قطُّ أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوَهم، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضَح »، والعلم عبادة من العبادات وقُربة من القُرَب فإن خَلُصت فيه النية قُبل وزَكَى ونمت بركته، وإن قُصد به غيرُ وجه الله

(1) أدب الطلب (ص 28 – 29)

تعالى حَبِط وضاع، وخَسِرت صفقته وبما تفوته تلك المقاصد ولا ينالها فيخيب قصده ويضيع سعيه[1].

وقال برهان الإسلام الزرنوجي في كتابه « تعليم المتعلم طريق التعلم »: وينوي بطلب العلم رضاء الله تعالى والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل، ولا ينوي به إقبال الناس إليه ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السلطان وغيره[2].

وقال المناوي: إذا وازنت بين من نيته بالتعلم إحياء وإعلاء السنة وإماتة البدعة وبين من نيته اكتساب مال أو رياسة رأيت بينهما في الفضل والرتبة أبعد مما بين السماء والأرض، وهما في التعب سواء، وإنما التفاوت بالنية والهمة[3].

وقال النووي في « مقدمة المجموع » – فصل في ذم من أراد بفعله غيرَ الله تعالى –: اعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو في من طلبه مريدا به وجهَ الله تعالى لا لغرض من الدنيا، ومن أراده لغرض دنيوي كمالٍ أو رياسة أو منصب أو وجاهة أو شهرة أو استمالة الناس إليه أو قهر المناظرين أو نحو ذلك فهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾، والآيات فيه كثيرة، وروينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال:

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص 168 - 169)

(2) أبجد العلوم 78/1

(3) فيض القدير 144/4

سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، وروينا عن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: من تعلم علما مما يُبتغى به وجهُ الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة، يعنى ريحَها. رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح، وروينا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: من تعلم علما ينتفع به في الآخرة يريد به عرضا من الدنيا لم يَرِح رائحة الجنة، روي بفتح الياء مع فتح الراء وكسرها وروي بضم الياء مع كسر الراء، وهي ثلاث لغات مشهورة، ومعناه لم يجد ريحها، وعن أنس وحذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: من طلب العلم ليماريَ به السفهاء ويكاثرَ به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوء مقعده من النار، ورواه الترمذي من رواية كعب بن مالك وقال فيه: أدخله الله النار، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينتفع به، وعنه ﷺ: شرار الناس شرار العلماء. وروينا في مسند الدارمي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عملَه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمَهم ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا يباهي بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى، وعن

سفيان: ما ازداد عبد علما فازداد في الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعدا، وعن حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله مكر به، والآثار به كثيرة[1].

قال ابن الجوزي: عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له، فإن رضي عملَه ورآه خالصا لفت القلوب إليه، وإن لم يره خالصا أعرض بها عنه[2]، ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشركُ نيتَه، لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له، ومن ضرورة الإخلاص ألا يقصد التفات القلوب إليه، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك.

وليعلم الإنسان أن أعماله كلَّها يعلمها الخلق جملةً وإن لم يطلعوا عليها، فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح وإن لم يُشاهَد منه ذلك، فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعا، لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل، وذهب العمر. ولقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا حسن بن موسى قال: حدثنا ابن لهيعة قال: حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو أن أحدكم يعمل في صخرةٍ صماءَ ليس لها باب ولا كُوَّة لخرج للناس عملُه كائنا ما كان » [3]، فليتق اللهَ العبدُ وليقصد من ينفعه قصده، ولا يتشاغل بمدح من عن قليلٍ يُبتلى هو وهم[4].

---

(1) المجموع 24/1

(2) قال ابن الجوزي: من عرف الله لم يراء. تلبيس إبليس (ص 116)

(3) رواه أحمد وأبو يعلى، وقال الهيثمي في المجمع: وإسنادهما حسن. وضعفه الألباني.

(4) صيد الخاطر (ص 374 - 375)

قال الذهبي: قال أبو محمد بن حميد المعمري: قال معمر: لقد طلبنا هذا الشأن وما لَنا فيه نيةٌ، ثم رزقنا الله النية من بعدُ، وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر قال: كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله.

قلت: نعم، يطلبه أولا، والحامل له حب العلم، وحب إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف، ونحو ذلك، ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه، ولا صدق النية، فإذا علم، حاسب نفسه، وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم، وعلامة ذلك أنه يَقْصُر من الدعاوي وحب المناظرة، ومِن قصد التكثر بعلمه، ويزري على نفسه، فإن تكثر بعلمه أو قال: أنا أعلم من فلان، فبُعْدا له[1].

2 - الاستعانة بالله والتوكل عليه سبحانه

قال ابن عباس: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: يا غلامُ إني أعلمك كلماتٍ: احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. الحديث، رواه الترمذي وصححه.

قال الشيخ بكر أبو زيد في « حلية طالب العلم » - اللجوء إلى الله تعالى في الطلب والتحصيل -: لا تفزع إذا لم يفتح لك في علم من العلوم، فقد تعاصت بعض العلوم على بعض الأعلام المشاهير، ومنهم من صرح بذلك كما يُعلم من تراجمهم، ومنهم الأصمعي في علم العروض، والرهاوي المحدث في الخط، وابن الصلاح في المنطق، وأبو مسلم النحوي في علم التصريف، والسيوطي في الحساب، وأبو عبيدة ومحمد بن عبد الباقي الأنصاري وأبو الحسن القطيعي وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء وأبو حامد

(1) سير أعلام النبلاء 17/7

الغزالي، خمستهم لم يفتح لهم بالنحو، فيا أيها الطالب! ضاعف الرغبة، وافزع إلى الله في الدعاء واللجوء إليه والانكسار بين يديه(1).

وكان ابن تيمية رحمه الله يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحوَ مائة تفسير ثم أسأل الله الفهمَ وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني، ويذكر قصة معاذ بن جبل وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته وقال: إني لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك ولكن أبكي على العلم والإيمان الذين كنت أتعلمهما منك، فقال: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما فاطلب العلم عند أربعة فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض فاطلبه من معلم ابراهيم(2).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في « تفسيره »: ذَكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن، ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل مِلاك الأمور كلها، فما فات أحدا شيءٌ من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله(3).

ومن حِكَم كلام الشيخ أبي الحسن الكانشي رحمه الله تعالى قوله: أرني من قصده فخيَّبه، أرني من توكل عليه فأضاعه، أرني من أطاعه فأضاعه، إذاً لا تراه أبدا(4).

---

(1) حلية طالب العلم (ص 180 – 181)

(2) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص 42 – 43)

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 440)

(4) ترتيب المدارك 49/6

وقال ابن القيم: كلما كان العبد حَسَنَ الظن بالله حسن الرجاء له صادقَ التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة، فإنه سبحانه لا يخيب أملَ آمل ولا يضيع عمل عامل[1].

وقد قال الإمام محمد بن جرير الطبري: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاثَ سنين، فأعانني[2].

3 - الذهن الثاقب

قال بعض الأوائل: لا يتم العلم إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومعلم حاذق، وشهوة، وكلما نقص من هذه الستة شيء، نقص بمقداره من العلم[3].

قال أبو هلال العسكري: ذكر (ثقوب الذهن) لأنه علة القبول وسبب الفهم، والبلادةُ تنافي ذلك الفهم والقبول، والبليد لا ينفعه طول التعليم، كالصخر لا ينبت فيه بدوام المطر[4].

وقال الفراء: إني لأرحم رجلين: بليدا يطلب، وذكيا لا يطلب[5].

قال الخطيب البغدادي: البلادة داء عسير برؤه، عظيم ضره[6].

وجاء رجل إلى ابن شُبْرُمَة، فسأله عن مسألة، ففسرها له، فقال: لم أفهم، فأعاد، فقال: لم أفهم، فأعاد، فقال: لم أفهم، فقال له: إن كنت لم تفهم لأنك لم تفهم، فستفهم بالإعادة، وإن كنت لم تفهم لأنك لا تفهم، فهذا داء لا دواء له[1].

---

(1) مدارج السالكين 471/1

(2) سير أعلام النبلاء 274/14

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 47 - 48)

(4) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 49)

(5) الفقيه والمتفقه 188/2

(6) الفقيه والمتفقه 188/2

قال أبو هلال العسكري: فكم من راغب مجتهد في طلبه لا يحظى منه بطائل على طول تعبه ومواصلة دأبه ونصبه، وذلك إذا نقص ذكاؤه وكَلَّ ذهنه ونَبَت قريحته، والفهم إنما يكون مع اعتدال آلته، فإذا عدم الاعتدال لم يكن قبول، كالطينة إذا كانت يابسة أو منحلة لم تقبل الختم، وإنما تقبله في حال اعتدالها[2].

وقال الشوكاني: يختلف الانتفاع بالعلوم باختلاف القرائح والفهوم، فقد ينتفع من هو كامل الذكاء صادق الفهم قوي الإدراك بالقليل ما لا يقتدر على الانتفاع بما هو أكثر منه كثير من جامدي الفهم راكدي الفطنة[3].

قال الشافعي: يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: أولها: طول العمر، والثانية: سعة اليد، والثالثة الذكاء[4]، قال الخطيب البغدادي: وإذا رزقه الله تعالى الذكاء فهو أمارة سعادته، وسرعة بلوغه إلى بغيته[5].

4 - الزمان الطويل

قال القعنبي: سمعت مالكا يقول: كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه.

قال عبد الله بن نافع: جالست مالكا خمسا وثلاثين سنة[6].

وقد تقدم في كلام الشافعي ذكر طول العمر. قال الخطيب البغدادي: أما طول العمر، فإنما قصد به دوام الملازمة للعلم[7].

---

(1) الفقيه والمتفقه 189/2

(2) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 43)

(3) أدب الطلب (ص 173)

(4) الفقيه والمتفقه 187/2

(5) الفقيه والمتفقه 188/2

(6) سير أعلام النبلاء 108/8

(7) الفقيه والمتفقه 187/2

5 - الكفاية

قال أبو هلال العسكري: ذكر الكفاية لأن التكسب وتعذر المعاش مقطعة، والرغبةَ إلى الرجال مذلة، والحاجة تميت النفس وتفسد الحس[1].

ومن الخصال التي ذكرها الشافعي: سعة اليد، قال الخطيب البغدادي: أراد بسعة اليد: أن لا يشتغل بالاحتراف وطلب التكسب، فإذا استعمل القناعة أغنته عن كثير من ذلك[2].

وقد قالوا: « لا تشاور من لا دقيقَ عنده »، وكان بعض ملوك العجم إذا شاور مرازبته فقصروا في الرأي دعا الموكَّلين لأرزاقهم فعاقبهم، فيقولون: تخطئ مرازبتك وتعاقبنا ! فيقول: نعم، إنهم لم يخطئوا إلا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم وإذا اهتموا أخطأوا، وكان يقال: « إن النفس إذا أحرزت قوتها ورزقها اطمأنت » [3].

وكان أحمد ابن طولون يُبَكِّر ويخرج فيسمع قراءة الأئمة في المحاريب، فدعا بعض أصحابه يوما وقال: امض إلى المسجد الفلاني، وأعط إمامه هذه الدنانير، قال: فمضيت فجلست مع الإمام وباسطته حتى شكا أن زوجته ضربها الطَّلْق ولم يكن معه ما يُصلح به شأنَها وأنه صلى فغلِط مرارا في القراءة، فعدت إلى ابن طولون فأخبرته، فقال: صدق، لقد وقفت أمسِ فرأيته يغلط كثيرا، علمت شُغْل قلبه[4].

6 - المعلم الحاذق

قال الخطيب البغدادي: لا بد للمتفقه من أستاذ يدرس عليه، ويرجع في تفسير ما أشكل إليه، ويتعرف منه طرق الاجتهاد، وما يفرق به بين الصحة والفساد، ثم روى

---

(1) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 49)

(2) الفقيه والمتفقه 187/2

(3) عيون الأخبار لابن قتيبة 87/1

(4) الأذكياء لابن الجوزي (ص 57)

الخطيب عن أبي حنيفة أنه قيل له: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: لهم رأس ؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبدا[1].

وقال أبو هلال العسكري: ذكر المعلم الحاذق لأنه ربما أخذ المتعلم سوء عبارة المعلم، وذلك إذا لم يكن حاذقا بطرق التعليم عالما بتقديم المبادئ، وإذا كان كذلك لم يحل المتعلم منه بطائل، لأن المقدَّم إذا أُخر والمؤخرَ إذا قُدِّم، بطل نظام التعليم، وضلت مقدمات الأمور، فأدى المتعلم ذلك وإن اجتهد إلى البعد والتأخر، وعلى قدر الأساس يكون البناء[2].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق، وهو المعلم، أما الثاني عن الكتاب، فهو جماد، فأنى له اتصال النسب ؟ وقد قيل: «من دخل في العلم وحده خرج وحده»[3]، أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ، خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلا بد إذا لتعلمها من معلمها الحاذق.

وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم، إلا من شذ مثل علي بن رضوان المصري الطبيب (م سنة 453 هـ)، وقد رد عليه علماء عصره ومن بعدهم، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمته له[4]: « ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتابا في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط » اهـ.

---

(1) الفقيه والمتفقه 162/2

(2) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 49)

(3) الجواهر والدرر للسخاوي (58/1).

(4) سير أعلام النبلاء (105/18). وانظر: شرح الإحياء (66/1)، وبغية الوعاة (131،286/1)، وشذرات الذهب (11/5)، والغنية للقاضي عياض (ص16-17).

وقد بسط الصفدي في « الوافي » الرد عليه، وعند الزبيدي في « شرح الإحياء » عن عدد من العلماء معللين له بعدة علل[1].

قال الصلاح الصفدي في « الوافي بالوفيات »: الطبيب المصري علي بن رضوان بن علي بن جعفر أبو الحسن المصري رئيس الأطباء للحاكم صاحب مصر، لم يكن له معلم في صناعة الطب ينسب إليه، وله مصنف في أن التعلم من الكتب أوفق من المعلمين، ورد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، وذكر فصلا في العلل التي من أجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضلَ من المتعلم من الصحف إذا كان قبولهما واحدا، وأورد عدة علل:

قال زهران: سأكتفي بإيراد بعضها.

قال: الأولى منها تجري هكذا: وصول المعاني من النسيب إلى النسيب خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب، والنسب الناطق أفهم للتعليم بالنطق وهو المعلم، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب، وبُعد الجماد من الناطق مُطيلٌ طريقَ الفهم، وقرب الناطق من الناطق مُقَرِّب للفهم، فالنسيب تفهيمه أقرب وأسهل من غير النسيب، وهو الكتاب.

وقال: الثالثة: المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من لفظه، نقله إلى لفظ آخر، والكتاب لا ينقل من لفظ إلى لفظ، فالفهم من المعلم أصلح للمتعلم من الكتاب، وكلما هو بهذه الصفة فهو في اتصال العلم أصلح للمتعلم.

الخامسة: وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل يكون من جهةٍ حاسةٍ غريبة من اللفظ، وهو البصر، لأن الحاسة النسيبة للفظ هي السمع، لأنه تصويت، والشيء الواصل من النسيب وهو اللفظ أقرب من وصوله من الغريب وهو الكتابة، فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الفهم من الكتابة بالخط.

(1) حلية طالب العلم (ص 158 - 159)

السادسة: يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم، وهي معدومة عند المعلم، وهي التصحيف[1] العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالإعراب أو عدم وجوده مع الخبرة بالإعراب أو فساد الموجود منه وإصلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب وسقم النسخ ورداءة النقل وإدماج القارئ مواضع المقاطع وخلط مبادئ التعليم وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس، وهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم.

وإذا كان الأمر على هذه الصورة فالقراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه.

قال الصفدي: ولهذا قال العلماء: لا تأخذوا العلم من صحفي ولا مصحفي، يعني لا يقرأ القرآن على من قرأ من المصحف ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف، وحسبك بما جرى لحماد لما قرأ في المصحف وما صحفه وذلك مذكور في ترجمة حماد الراوية، وقد وقع لابن حزم وابن الجوزي أوهام وتصحيف معروفة عند أهلها[2]، وناهيك بهذين الاثنين، وهذا الرئيس أبو علي ابن سينا وهو ما هو لما استبد بنفسه في الأدوية المفردة اتكالا على ذهنه لما سلم من سوء الفهم لم يسلم من

(1) قال ابن الصلاح: وأما التصحيف فسبيل السلامة منه الأخذ من أفواه أهل العلم، والضبط، فإن من حرم ذلك، وكان أخذه وتعلمه من بطون الكتب، كان من شأنه التحريف، ولم يفلت من التبديل والتصحيف، والله أعلم. علوم الحديث (ص 217 - 218)

(2) ذكر الذهبي أنه قرأ بخط الموقاني أن ابن الجوزي كان كثير الغلط فيما يصنفه فإنه كان يفرغ من الكتاب ولا يعتبره. قال الذهبي: نعم له وهم كثير في تواليفه يدخل عليه الداخل من العجلة والتحويل إلى مصنف آخر، ومن أن جل علمه من كتب صحف ما مارس فيها أرباب العلم كما ينبغي. تذكرة الحفاظ 95/4

التصحيف فإنه أثبت البنطافلن وهو بتقديم الباء على النون ومعناه ذو خمس أوراق في حرف النون[1].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: والدليل المادي القائم على بطلان نظرة ابن رضوان: أنك ترى آلاف التراجم والسِّيَر على اختلاف الأزمان ومر الأعصار وتنوع المعارف، مشحونة بتسمية الشيوخ والتلاميذ، ومستقل من ذلك ومستكثر، وانظر شذرة من المكثرين عن الشيوخ حتى بلغ بعضهم الألوف كما في « العزاب » من « الإسفار » لراقمه[2].

قال النووي: قالوا: ولا يأخذ العلم إلا ممن كمَلت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتُهرت صيانته وسيادته، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ولا يكفي في أهليته للتعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونُه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية فإنها مرتبطة، ويكون له دربة ودين وخلق جميل وذهن صحيح واطلاع تام[3].

7 - الشهوة

قال الماوردي: الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يُسرِع إليه الملل[4].

وقال أبو هلال العسكري: ذكر الشهوة لأن النفس إذا اشتهت الشيء، كانت أسمح في طلبه، وأنشط لالتماسه، وهي عند الشهوة أقبل للمعاني، وإذا كانت كذلك لم تدخر من قواها ولم تحبس من مكنونها شيئا، وآثرت كَدَّ النظر على راحة الترك[1].

---

(1) الوافي بالوفيات 74/21 - 75

(2) حلية طالب العلم (ص 160)

(3) مقدمة المجموع 36/1

(4) أدب الدنيا والدين (ص 67)

وقال ابن القيم: العلم صناعة القلب وشغله، فما لم يتفرغ لصناعته وشغله لم ينلها، وله وجهة واحدة، فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم، ومن لم تغلب لذةُ إدراكه العلم وشهوتُه على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في إدراكه رُجي له أن يكون من جملة أهله[2].

وقال الشيخ محمد الغزالي: ما أجمل العمل المصحوب بالسرور والرضا، إن المرء يقوم به وهو مستريح له، يطوي مراحله بأجنحة الشوق ويغالب صعابه بعزم من حديد، أما العمل الكريه فإن الإنسان يباشره ضائقَ الصدر يستصعب سهله، ويود الخلاص منه! طالب المعرفة يقرأ بشغف ويشارك قلبه وبصره في الوعي والإفادة! أما المكره على الدراسة فهو يَرْمُق الكتاب وكأنه عدو مبين..! وما يتم عمل عظيم إلا إذا كان مقرونا بالرغبة الصادقة والإقبال العارم، عندئذ تنتظر مواقف البطولة وترى مغالبة بين الإرادة الشديدة والغاية البعيدة، يتحقق فيها قول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام[3]

ومما قاله القاضي عياض في ترجمة أبي عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوى: كان قد حُبِّب إليه الدرس مدة عمره لا يفتُر عنه ليلَه ونهاره، ورجعت فيه لذته. وكان أولَ طلبه ممكنا في عيشه يتجر في سوق البزازين لا يفارق أثناء ذلك المطالعة في جلوسه وحركته. ذكر أن صديقا له قصده في عيد زائرا له فأصابه داخلَ داره ودربُه مفتوح، فجلس منتظرَه وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب، فتنبه حينئذ له، وسلم عليه،

---

(1) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 48)

(2) مفتاح دار السعادة 142/1

(3) الحق المر 143/3

واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة ؟ فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[1].

قال ابن الجوزي: ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم[2].

وقال ابن القيم: وأما عشاق العلم فأعظم شغفا به وعشقا له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر، وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره: هنيئا لك إذ ليست لك ضرة، فقالت: والله لهذه الكتب أضر عليَّ من عدة ضرائر، وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع[3]، وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه فإذا غُلِب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوما وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك فإنك تعين على نفسك وتكون سببا لفوات مطلوبك، وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرض فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامَك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فَرِحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض، فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا، أو كما قال.

فعِشْقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها معشوقا كما قيل:

---

(1) ترتيب المدارك 7/123 - 125

(2) صيد الخاطر (ص 456)

(3) قال ابن رجب: يشير بذلك إلى قوة حرصه على العلم وحصوله، وحفظه لأوقاته. ذيل طبقات الحنابلة 4/5

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي[1]

ومما وقعت عليه عيني أن المخترع الأمريكي المشهور توماس أديسون[2] أشفقت عليه زوجته مما رأته من إجهاده لنفسه وحمله عليها في البحث والكشف، فقالت له: هلا أخذت إجازة تريح فيها نفسك، فقال لها: وأين أذهب ؟ قالت: انظر أحب الأمكنة إليك، فقال: حسنا، وأخذ طريقه إلى المختبر.

8 - كثرة العمل مع الصبر

قال أبو هلال العسكري: وذكر (كثرة العمل) لكثرة العلم، وكثرة العوائق والموانع، وقصر العمر، فمن لا يَدْأب في الطلب، ويُكثر من الالتماس في وقت الفراغ وقوة الشباب، قطعته القواطع بعد قليل، فيبقى صِفْرا وعاريا عُطْلا[3].

قال مالك بن دينار: ما من أعمال البر شيء، إلا ودونه عُقَيْبَة، فإن صبر صاحبها، أفضت به إلى رَوح، وإن جزع، رجع[4]، وقال الشافعي: لا يدرك العلم إلا بالصبر على الضر[5].

قال صاحب « زاد المستقنع »: والأسباب المثبطة عن نيل المراد قد كثرت، قال الشيخ ابن عثيمين في شرحه: قوله: « قد كثرت »، ولكن مع الاستعانة بالله عز وجل وبذل المجهود يحصل المقصود، وليعلم أنه كلما قوي الصارف، فإن الطالب في جهاد،

---

(1) روضة المحبين (ص 69 - 70)

(2) أديسون، توماس ألفا (1847 - 1931م) أشهر مخترع أمريكي في التاريخ. لم ينل من التعليم الرسمي أكثر من ثلاثة أشهر فقط، لكنه غير حياة الملايين من البشر باختراعات منها: المصباح الكهربائي، وسجل ما مجموعه 1093 اختراعا. عرَّف أديسون العبقرية بأنها 1% إلهام و99% جهد. كان العمل رفيقه الدائم ومتعته العظيمة طوال سنوات حياته. انظر الموسوعة العربية العالمية.

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 49)

(4) سير أعلام النبلاء 363/5

(5) الفقيه والمتفقه 186/2

وأنه كلما قوي الصارف ودافعه الإنسان فإنه ينال بذلك أجرين: أجر العمل، وأجر دفع المقاوم، ولهذا قال النبي ﷺ: إن أيام الصبر للعامل فيهن أجر خمسين من الصحابة[1]، لأن هناك أسبابا مثبطة كثيرة، ولكن إذا أعرضتَ فهذه المصيبة[2].

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: مرحلة تحصيل العلم مرحلة صعبة شاقة جدا، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتنحسر أمامها عزمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال، ممن كان مُغرما بالعلم، ذائقا لذَّتَه، عازما على تحصيله ولو لقي في سبيله الألاقيَّ[3].

قال برهان الإسلام الزرنوجي في كتابه « تعليم المتعلم طريق التعلم »: لا بد لطالب العلم من الجد والمواظبة والملازمة، وإليه الإشارة في القرآن الكريم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ و﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [4].

قال بعض الحكماء: من التمس أربعا بأربع التمس ما لا يكون: من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون، ومن التمس مودة الناس بالغِلظة التمس ما لا يكون، ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون، **ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون**[5].

---

(1) رواه أبو داود، كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي، رقم (4341) ، والترمذي، كتاب تفسير القرآن: باب (ومن سورة المائدة)، رقم (3058) وقال: «حسن غريب» ، وابن ماجه، كتاب الفتن: باب قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم} بمعناه من حديث أبي ثعلبة الخشني، وإسناده ضعيف. إلا أن له شاهدا من حديث ابن مسعود يتقوى به، رواه البزار رقم (1776) ، والطبراني في «الكبير» رقم (10394) ، قال الهيثمي: «ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثقة ابن حبان» ، المجمع (282/7) .

(2) الشرح الممتع على زاد المستقنع 22/1 - 23

(3) صفحات من صبر العلماء (ص 120 - 121)

(4) أبجد العلوم 79/1

(5) أدب الدنيا والدين (ص 325 - 326)

وقد روى مسلم في « صحيحه » عن يحيى بن أبي كثير قال: لا يُستطاع العلم براحة الجسم[1]، قال النووي في « شرح مسلم »: جرت عادة الفضلاء بالسؤال عن إدخال مسلم هذه الحكاية عن يحيى مع أنه لا يذكر في كتابه إلا أحاديث النبي ﷺ محضةً، مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة، فكيف أدخلها بينها، وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى عن بعض الأئمة أنه قال: سببه أن مسلما رحمه الله تعالى أعجبه حسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمر وكثرة فوائدها وتلخيص مقاصدها وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام وغيرها، ولا نعلم أحدا شاركه فيها، فلما رأى ذلك أراد أن ينبه من رغب في تحصيل الرتبة التي يُنال بها معرفةُ مثلِ هذا فقال: طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمَه في الاعتناء بتحصيل العلم، هذا شرح ما حكاه القاضي[2].

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: كنا بمصرَ سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، كلُّ نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس فلم يمكنا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد[3].

قال ابن الجوزي: تأملت عجبا، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرفَ الأشياء لم يحصل إلا بالتعب

---

(1) قال السيوطي في الديباج 266/2: وقد أخرجه بن عدي في الكامل بزيادة ولفظه سمعت أبي يقول: كان يقال: العلم خير من ميراث الذهب، والنفس الصالحة خير من اللؤلؤ، ولا يستطاع العلم براحة الجسم.

(2) شرح صحيح مسلم للنووي 113/5 – 114

(3) سير أعلام النبلاء 266/13

والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر، لأن وقتَ بيعها وقتُ سماع الدرس[1].

وقال القاضي أبو يوسف: طلبنا هذا العلم وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة، فما انتفع به منا إلا من دبغ اللبن قلبه، وذلك أن أبا العباس لما أفضى إليه الأمر بعث إلى المدينة فأقدم عليه عامة من كان فيها من أهل العلم، فكان أهلنا يعدون لنا خبزا يلطخونه لنا باللبن، فنعدوا في طلب العلم ثم نرجع إلى ذلك فنأكله، فأما من كان ينتظر أن تصنع له هريسة أو عصيدة فكان ذلك يشغله حتى يفوته كل ما كنا نحن ندركه[2].

وقد قيل لشعبة: ما بال حديثك نقيا قال: لتركي العصائدَ بالغدوات، وسئل شريك عن حديثٍ، فقال: هذا ما فاتنا فيه العصائد[3].

وقال أبو إسحاق الشيرازي: كنت أشتهي وقت طلبي العلمَ الثريدَ بماء الباقلاء سنينَ فما صح لي لاشتغالي بالدرس وأخذي السبقَ بالغدوات والعشيات[4].

وقال ابن الجوزي: ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفةً يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم[5].

وقد اشترى أصحاب الشافعي له جاريةً، فلما كان الليل، أقبل على الدرس، والجارية تنتظر اجتماعه معها، فلم يلتفت إليها، فلما أصبحت سارت إلى النخاس

---

(1) صيد الخاطر (ص 281)

(2) جامع بيان العلم 411/1

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 64)

(4) المنتظم لابن الجوزي 229/16، وقد قال الذهبي في ترجمته من السير 462/18: ما تزوج فيما أعلم.

(5) صيد الخاطر (ص 248)

وقالت: حبسوني مع مجنون، فبلغ الشافعيَّ رحمه الله تعالى قولُها، فقال: المجنون من عرف قدر العلم ثم ضيعه أو توانى فيه حتى فاته[1].

وقال يحيى بن يحيى[2]: لقد طلبت هذا الأمر يومَ طلبته ولا أريد إلا نفسي حتى هيأ الله ما هيأ، فعلمت أن الناس يحتاجون إليَّ، ولقد تقت إلى النساء في أيامي مع ابن القاسم بمصر، فاشتريت جارية بها، فوالله ما رأيت لها وجها نهارا طولَ ما قامت عندي، حتى بعتها اشتغالا بابن القاسم وعلمه[3].

وللشابي بيتان سماهما « متاعب العظمة »، قال فيهما[4]:

إذا صغرت نفس الفتى كان شوقه صغيرا، فلم يتعب، ولم يتجشمِ

ومن كان جبَّار المطامع لم يزل يلاقي من الدنيا ضراوة قشعم

وقال أبو بكر الدينوري[5]:

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا بغير عناء، والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها، فالعلم كيف يكون

وقال الزمخشري[6]:

يا من يحاول بالأماني رتبتي كم بين منخفض وآخر راقي

(1) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 78)

(2) هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس أبو محمد الليثي الأندلسي، أصله من البربر، ورحل إلى مالك فلازمه، وسماه مالك عاقل الأندلس،لأنه كان في مجلس مالك فقال قائل: هذا الفيل، فخرجوا لرؤيته ولم يخرج، فقال له مالك: لم لا تخرج لتنظر الفيل وهو لا يكون في بلادك ؟ فقال له: إنما جئت من بلدي، لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، لا إلى أن أنظر إلى الفيل، فأعجبه ذلك، وسماه عاقل الأندلس، وإليه انتهت الرئاسة بالفقه بالأندلس، وبه انتشر مذهب مالك هناك. [ترتيب المدارك للقاضي عياض 382/3 – 383، وتزيين الممالك بمناقب الإمام مالك للسيوطي]

(3) ترتيب المدارك 386/3

(4) أغاني الحياة (ص 255)

(5) ذيل طبقات الحنابلة 429/1

(6) أليس الصبح بقريب (ص 9)

أأبيت ليلي ساهرا وتضيعه   نوما وتأمل بعد ذاك لحاقي

قال المقري: ومن فوائد الباجي أنه حكى أن الطلبة كانوا ينتابون مجلس أبي علي البغدادي، واتفق أن كان يوما مطر ووحل فلم يحضر من الطلبة سوى واحد، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا   حد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم   وعانق المجد من وافى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا[1]

وكان بعضهم يقول: متى تبلغ من العلم مبلغا يُرضى، وأنت تُؤْثر النومَ على الدرس، والأكلَ على القراءة[2].

وقال الجاحظ: العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضَه حتى تعطيَه كلَّك، وأنت إذا أعطيته كلك كنت من إعطائه إياك البعض على خطر[3].

وقال أبو هلال العسكري: درجة العلم أشرف الدرج، فمن أراد مداولتها بالدعة، وطلب البلوغ إليها بالراحة، كان مخدوعا[4].

ولما ذكر ابن القيم سعادة العلم النافع ثمرتُه وقال: هي: السعادة الحقيقية، وهي سعادة نفسانية روحية قلبية، قال رحمه الله: وإنما رغَّب أكثرَ الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وُعُورةُ طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض[5]، ثم قال ابن القيم: وأما سعادة

---

(1) نفح الطيب 73/2

(2) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 77)

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 42)، ونحوها عن أبي يوسف في وفيات الأعيان لابن خلكان 384/6

(4) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 42)

(5) مفتاح دار السعادة 108/1

العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية، وقد أحسن القائل في ذلك:

فقل لمرجي معالي الأمور بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قَتَّال

ومن طمحت همته إلى الأمور العالية فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية، وهي السعادة وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذي وإنها متى أُكرِهت النفسُ عليها وسيقت طائعة وكارهة إليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها إلى رياض مونقة ومقاعدَ صدق ومقامٍ كريم تجد كل لذة دونها لعبَ الصبي بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوك، فحينئذ حال صاحبها كما قيل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما بعدها لي مذهب

فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

فالمكارم منوطة بالمكارة والسعادةُ لا يُعبَر إليها إلا على جسر المشقة، فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد، قال مسلم في صحيحه: قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم، وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة.

فيا وصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حُفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم[1].

وقال الماوردي: كثرة الدرس كدودٌ لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما، فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل، فإنَّ نيل العظيم

---

(1) مفتاح دار السعادة 108/1 - 109

بأمر عظيم، وعلى قدر الرغبة تكون المطالب، وبحسب الراحة يكون التعب، وقد قيل: طلب الراحة قلة الاستراحة، وقال بعض الحكماء: أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب، وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب[1].

وقال مصطفى صادق الرافعي: ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ، ولكنها في التعب والكدح والمشقة حين تتحول أيامًا إلى راحة وفراغ[2].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: كلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصَل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه تنقلب عند أرباب البصائر مِنَحا يسرون بها ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[3].

قال ابن الجوزي: من صبر على ما يكرَه قَصْدَ النفع في العاقبة التذَّ أضعافا، كطالب العلم فإنه يتعب يسيرا وينال خير الدارين مع سلامة العاقبة، ولذةُ البطالة تعقب عدم العلم والعمل فيزيد الأسى على اللذة أضعافا، فالله الله أن يغلبك هواك العاجل، ومتى هم الهوى بالتوثب فامنعه وزن عاجله بآجله، وما يتذكر إلا أولو الألباب[4].

وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الفيلسوف أفلاطون فإنه قال: الفضائل مرة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب[5].

وقد قال ابن القيم: خاصة العقل ملاحظة العواقب[1].

---

(1) أدب الدنيا والدين (ص 57)

(2) وحي القلم 44/1

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 150)

(4) صيد الخاطر (ص 489 - 490)

(5) أدب الطلب (ص 133)

وقال ابن الجوزي: كل من يتلمح العواقب ولا يستعد لما يجوز وقوعُه فليس بكامل العقل، واعتبر هذا في جميع الأحوال، مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوف بالتوبة، فربما أُخذ بغتة ولم يبلغ بعض ما أمَّل، وكذلك إذا سوف بالعمل أو بحفظ العلم، فإن الزمان ينقضي بالتسويف ويفوت المقصود، وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله فسوَّف فبُغت، **فالعاقل من أخذ بالحزم** في تصوير ما يجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك، فإن امتد الأجل لم يضره، وإن وقع المخوف كان محترزا[2].

وقد صدق من قال[3]:

بادر إلى طلب العلم العزيز وإن ضاقت ولم تصفُ أقوات وأوقات

ولا تؤخر لصفو ورجا سعة فهم يقولون للتأخير آفات

احذر داء الكسل!

قال في القاموس: **الكسَل**: التثاقل عن الشيء والفتور فيه.

قال ابن الجوزي: ولا تخلد إلى كسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجِد والعزم[4]، وقد قال الحريري: وما اشتار العسل من اختار الكسل[5].

وقال ابن الجوزي: وليحذر من لص الكسل، فإنه محتال على سرقة الزمان[6].

---

(1) روضة المحبين (ص 104)

(2) صيد الخاطر (ص 297 - 298)

(3) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص 317)

(4) صيد الخاطر (ص 175)

(5) الإيضاح للخطيب القزويني (ص 389)

(6) صيد الخاطر (ص 384)

وقال أيضا: وأي عيش لمن ساكن الكسلَ إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل، أو استغنوا بالتجارة وهو فقير، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى[1].

وقد كتب القاسمي في مذكراته: الكسل من النقائص التي تولد الخسائس والشرور، ويدل على ضعف في إدراك صاحبه وحِطة في نفسه[2].

قال ابن القيم: لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم، كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه، إلى أن قال: وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كيسا[3].

وقال ابن عاشور: ثم إن للصبر فائدةً أخرى عظيمةً، وهي تربية قوة الإرادة في النفس، وتسمى هذه القوة بالهمة وبالعزيمة، وهي خُلُق تنشأ عليه النفس من شأنه أن يدفعها إلى السعي في تحصيل ما تتطلبه بدون كلل، فلا يزال هذا الخلق ينمى حتى تصير الأخطار لديه محتقرة[4]، وصاحب هذا الخلق مُظهر للأعمال العظيمة في كل غرض يَعمَد إليه من علم أو تأليف أو تدبير دولة أو قيادة جيش أو غير ذلك[5].

وقد أنشد أبو يعلى الموصلي:

إني رأيت وفي الأيام تجربةٌ ... للصبر عاقبةً محمودة الأثر

وقَلَّ من جد في شيء يحاوله ... فاستصحبَ الصبر إلا فاز بالظفَر[6]

---

(1) صيد الخاطر (ص 314)

(2) الرسائل بين القاسمي والآلوسي (ص 19)

(3) عدة الصابرين (ص 11)

(4) قال أبو الطيب المتنبي كما في خزانة الأدب 197/1:

تحقر عندي همتي كل مطلب ... ويقصر في عيني المدى المتطاول

(5) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (ص 72)

(6) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص 161)

9 - علو الهمة

قال الصبان: [الهمة] عرفا: حالة للنفس يتبعها غلبة انبعاث إلى نيل مقصودٍ ما، فإن تعلقت بمعالي الأمور فَعَلِيَّة، أو بسفاسفها فَدنيَّة[1].

قال صديق حسن خان: من الشروط المعتبرة في التحصيل: الجِدُّ والهمة، فإن الإنسان يطير بهما إلى شواهق الكمالات[2]، قال الإمام الشافعي: مدارك العلم صعبة لا تُنال إلا بالجِدِّ والاجتهاد[3].

وقد ذكر النووي أن من آداب الطالب: أن يكون همته عالية فلا يرضى باليسير مع إمكان كثير[4].

وكان ابن القيم يقول: لا بد للسالك من هِمَّة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه[5]، وقال ابن القيم أيضا: من لم تكن همته التقدمَ فهو في تأخر ولا يشعر، فإنه لا وقوف في الطبيعة ولا في السير، بل إما إلى قدام وإما إلى وراء[6].

قال الماوردي: أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى التخصيص أنفةً من خمول الضعة، واستنكارا لمهانة النقص، ولذلك قال النبي ﷺ: إن الله يحب معالي الأمور وأشرافَها، ويكره دنيها وسفسافها، وروي عن عمر بن الخطاب ﷛ أنه قال: لا تصغرن همتكم فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم، وقال بعض الحكماء: الهمة راية الجد، وقال بعض البلغاء: علو الهمم بَذْر النعم، وقال بعض العلماء: إذا

(1) حاشية الصبان على شرح الملوي الصغير في المنطق (ص 10)

(2) أبجد العلوم 136/1

(3) الفقيه والمتفقه 56/2

(4) مقدمة المجموع 38/1

(5) الدرر الكامنة لابن حجر 138/5

(6) مدارج السالكين 477/1

طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة، وقال بعض الأدباء: من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيما[1].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: من سجايا الإسلام التحلي بكبر الهمة، مركزِ السالب والموجب في شخصك، الرقيبِ على جوارحك، كبر الهمة يجلب لك بإذن الله خيرا غير مجذوذ، لترقى إلى درجات الكمال، فيجري في عروقك دمُ الشهامة والركض في ميدان العلم والعمل، فلا يراك الناس واقفا إلا على أبواب الفضائل، ولا باسطا يديك إلا لمهمات الأمور، والتحلي بها يسلب منك سفاسف الآمال والأعمال، ويجتنب منك شجرة الذل والهوان والتملق والمداهنة، فكبير الهمة ثابت الجأش، لا ترهبه المواقف، وفاقدها جبان رعديد، تغلق فمه الفهاهة. ولا تغلَط فتخلِطَ بين كِبَر الهمة والكِبْر، فإن بينهما من الفرق كما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، كبر الهمة حِلْية ورثة الأنبياء، والكبر داء المرضى بعلة الجبابرة البؤساء. فيا طالب العلم ارسم لنفسك كبر الهمة، ولا تنفلت منه، وقد أومأ الشرع إليها في فقهيات تُلابس حياتَك، لتكون دائما على يقظة من اغتنامها، ومنها: إباحة التيمم للمكلف عند فقد الماء، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء للوضوء، لما في ذلك من المنة التي تنال من الهمة منالا، وعلى هذا فقس[2]، والله أعلم[3].

قال مصطفى صادق الرافعي: لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمدَ الأبعد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة[4].

وقال ابن الجوزي: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء[5].

---

(1) أدب الدنيا والدين (ص 319)

(2) السعادة العظمى لمحمد الخضر حسين (ص 76 – 78).

(3) حلية طالب العلم (ص 173)

(4) وحي القلم 54/1

(5) صيد الخاطر (ص 28)

وقال النووي: ليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فَوَّتها[1].

وقال ابن الجوزي: ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصور للآدمي صعودُ السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن[2].

وقال ابن الجوزي أيضا: ينبغي لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس، فلو كانت النبوة مثلا تأتي بكسب لم يجز له أن يقنع بالولاية، أو تصور أن يكون مثلا خليفة لم يحسن به أن يقتنع بإمارة، ولو صح له أن يكون ملَكا لم يرض أن يكون بشرا، والمقصود أن ينتهي بالنفس إلى كمالها الممكن لها في العلم والعمل[3].

وقال أيضا: وفي الجملة لا يَترك فضيلةً يمكن تحصيلها إلا حصلها، فإن القنوع في حالة الأرذال.

فكن رجلا رجله في الثَّرى وهامة همته في الثريا

ولو أمكنك عبور كلِّ أحد من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالا وأنت رجل، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها[4].

وقال الشوكاني: ينبغي لمن كان صادقَ الرغبة قويَّ الفهم ثاقب النظر عزيز النفس شهم الطبع عالي الهمة سامي الغريزة أن لا يرضى لنفسه بالدون ولا يقنعَ بما دون الغاية، ولا يقعدَ عن الجِدِّ والاجتهاد المبلِّغين له إلى أعلى ما يراد وأرفعِ ما يُستفاد، فإن

---

(1) مقدمة المجموع 37/1

(2) صيد الخاطر (ص 173)

(3) صيد الخاطر (ص 183 - 184)

(4) صيد الخاطر (ص 175)، وقال الحجوي في الفكر السامي 189/2: ولله در سعيد بن الحداد الفقيه القيرواني إذ يقول: إن الذي أدخل كثيرا من الناس في التقليد نقص العقول ودناءة الهمم.

النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى بدون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه أو مال أو رئاسة أو صناعة أو حرفة حتى قال قائلهم:

إذا غامرت في شرف مَروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطَعْمُ الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وقال آخر مشيرا إلى هذا المعنى:

إذا لم تكن ملِكا مطاعا فكن عبدا لخالقه مطيعا

وإن لم تملك الدنيا جميعا كما تهواه فاتركها جميعا

هما شيئان من مُلْك ونسك يُنيلان الفتى شرفا رفيعا

وقال آخر:

فإما مكانا يضرب النجم دونه سُرادقه أو باكيا لحمام

وقد ورد هذا المعنى كثيرا في النظم والنثر، وهو المطلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة وتقبله النفوس العلية.

وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال قريبة الاضمحلال، فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ما هو أشرف مطلبا وأعلى مكسبا وأرفع مرادا وأجل خطرا وأعظم قدرا وأعود نفعا وأتم فائدة، وهي المطالب الدينية مع كون العلم أعلاها وأولاها بكل فضيلة وأجلها وأكملها في حصول المقصود، وهو الخير الأخروي[1].

قال ابن الجوزي: من رُزق همة عالية يُعذَّب بمقدار علوها كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقال الآخر:

ولكل جسم في النُّحول بليةٌ وبلاء جسمي من تفاوت همتي

(1) أدب الطلب (ص 127 - 128)

وبيان هذا: أن من عَلَت همته طلب العلومَ كلَّها ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل علم نهايتَه، وهذا لا يحتمله البدن[1]، ثم يرى أن المراد العملُ، فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمعُ بين ذلك وبين العلم صعب، ثم يرى تركَ الدنيا ويحتاجُ إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرمُ البذلَ، ويمنعه عِزُّ النفس عن الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على طبعه من الكرم، احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك، وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمعٍ بين أضداد، فهو أبدا في نَصَب لا ينقضي، وتعب لا يفرغ، ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال زاد تعبه وقوي وَصَبه، فأين هو ومن دنت همته ؟ إن كان فقيها فسُئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدثا فسئل عن مسألة فقهية قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه مقصر، والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحةً قد كشفت عيبَه، وقد رأت الناس عورته، والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس ولا يستقبح سؤالَهم ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى، وراحة القصير الهمة تعب وشَيْن إن كان ثَم فهم، والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه، فإن سبَق فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم[2].

---

(1) قال ابن الجوزي: نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبا، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فن، هذا أمر يعجز العمر عن بعضه. صيد الخاطر (ص 251 - 252)

(2) صيد الخاطر (ص 469 - 470)

هِمَم القوم

قال ابن الجوزي: كانت همم القدماء من العلماء عليةً، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دثَرت، لأن همم الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشَطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تُنسخ.

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليُكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشْحَذ خاطره ويحرك عزيمته للجِد، وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانفيهم، وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم، كما قال:

فاتني أن أرى الديار بطرْفي　　　فلعلي أرى الديار بسمعي

وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابا لم أره، فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألفَ مجلد كان أكثر وأنا بعدُ في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم

وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصِرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد[1].

وقال ابن سينا: اتفق أن مَرِض سلطان بخارى نوح بن منصور الساماني مرضا تَكِعُّ الأطباء فيه، وكان اسمي اشتُهر بينهم بالتوفر على العلم والقراءة، فأجرَوا ذكري بين يديه فأمر بإحضاري، وشاركتهم في مداواته وتوسمت بخدمته فسألته يوما دخولي دارَ كتبهم ومطالعتَها وقراءةَ ما فيها من كتب الطب، فأذن لي، فدخلت دارا ذات بيوت في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على البعض، في بيت العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكل بيت كتب علم مفرد[2]، فطالعت فِهْرِست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه ورأيت هناك من الكتب ما لم يقع إليَّ اسمه، فقرأت تلك الكتب وظفِرت بفوائدها[3].

وقال ابن حجر في « التلخيص الحبير »: قال الحافظ أبو موسى: سمعت عبد الجليل بن أحمد في المذاكرة يقول: قال أبو إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد الأنصاري: كتبت هذا الحديث- يعني حديث: إنما الأعمال بالنيات - عن سبعمائة نَفَر من أصحاب يحيى بن سعيد، قلت: تتبعتُه من الكتب والأجزاء حتى مررت على أكثرَ من ثلاثة آلاف جزء فما استطعت أن أكمل له سبعين طريقا[4].

وقال السيوطي في ديباجة كتابه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة »: أما بعد فإني مذ نشأت وأنا أتشوق إلى كتاب يجمع أخبار النحويين لمزيد اختصاصي بهذا الفن، إذ هو أول فنوني، والنوع الذي عُنِيت به قبل أن تجتمع شئوني، فوقفت على

---

(1) صيد الخاطر (ص 453 - 454)

(2) كذا في المطبوع ولعلها [وفي كل بيت كتبُ علمٍ مفرد]. زهران

(3) الوافي للصفدي 244/12

(4) التلخيص الحبير 92/1 ، وقال في فتح الباري 11/1: وأنا أستبعد صحة هذا فقد تتبعت طرقه من الروايات المشهورة والأجزاء المنثورة منذ طلبت الحديث إلى وقتي هذا فما قدَرت على تكميل المائة.

طبقات النحاة البصريين لأبي سعيد السيرافي، فإذا هي كراسان، ثم على كتاب مراتب النحويين لأبي الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي اللغوي، فإذا هو أربع كراريس، ثم على طبقات النحاة لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، فإذا هو جزء لطيف، ثم على البلغة في طبقات أئمة اللغة للقاضي مجد الدين الفِيرُوز آبادي صاحب القاموس، وهو أيضا جزء لطيف، فلم أر في ذلك ما يشفي العليلَ ولا يسقي الغليل، فجردت الهمة في سنة ثمان وستين وثمانمائة إلى جمع كتاب في طبقات النحاة، جامعٍ مستوعب للمهمات، وعمَدت إلى التواريخ الكبار التي هي أصول وأمات، وما جمع عليها من فروع وتتمات، وطالعت ما ينيف على ثلاثمائة مجلد، ثم ذكرها رحمه الله وقال: فجمعت كل ما تضمنته هذه الكتب المذكورة من ترجمة نَحْويٍّ، طالت أو قصرت، خفيت أخباره أو اشتُهرت، وأوردت من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم ما لم يجتمع في كتاب[1].

وانظر ما ذكره الشعراني في الميزان (256/1 - 261) من الكتب الكثيرة التي طالعها، فقد ذكر شيئا يحير الألباب.

ثم إنهم زيادة على نهمهم الشديد للمطالعة كانوا سريعي القراءة بحيث كانوا يقطعون الفيافي في أوقات وجيزة، وقد قال أبو إسماعيل الهروي: المحدث يجب أن يكون سريع المشي، سريع الكتابة، سريع القراءة[2].

قال جمال الدين القاسمي في ترجمة الفِيروزآبادي صاحب القاموس: ومن أغرب ما منحه الله به أنه قرأ بدمشقَ على ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن جهبل صحيحَ مسلم في ثلاثة أيام، وصرح بذلك في ثلاثة أبيات فقال:

---

(1) بغية الوعاة 3/1 - 5

(2) ذيل طبقات الحنابلة 133/1

قرأت بحمد الله جامعَ مسلمٍ بجوف دمشق الشام جوفاً لإسلامِ

على ناصر الدين الإمام ابن جهبلٍ بحضرة حُفَّاظ مشاهيرَ أعلامِ

وتم بتوفيق الإله وفضله قراءةَ ضبط في ثلاثة أيام

ويقرُب من هذا ما في ذيل ابن فهد على ذيل الشريف أبي المحاسن في طبقات الحفاظ ما نصه: وقرأ الحافظ أبو الفضل العراقي صحيحَ مسلم على محمد بن إسماعيل الخباز بدمشق في ستة مجالس متواليةٍ قرأ في آخر مجلس منها أكثرَ من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رجب وهو يعارض بنسخته.

وفي تاريخ الذهبي في ترجمة إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري الضرير ما نصه: وقد سَمِع عليه الخطيبُ البغدادي بمكة صحيحَ البخاري سماعَه من الكُشْمِيهَنِيِّ في ثلاثة مجالس، قال: وهذا شيء لا أعلم أحدا في زماننا يستطيعه. انتهى، أفاده السيد مرتضى الزبيدي في مقدمة شرح القاموس.

وقال السخاوي: وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجلُّ مما وقع لشيخه المِجْدِ اللغوي، فإنه قرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم في يومين وشيء، وقرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس، وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشَرة مجالسَ كل مجلس منها أربع ساعات. ثم قال السخاوي: وأسرع شيء وقع له، أي لابن حجر، أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر. قال: وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمئة حديث. انتهى، فرحم الله هذه الهمم العالية وأسكنها غرف الجنان السامية[1].

(1) الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين للقاسمي (ص 211 – 213)، وانظر خلاصة الأثر للمحبي 36/1 – 37

تنبيه:

قال ابن القيم: فإن قلت: كل مُجِدٍّ في طلب شيء لا بد أن يَعرِض له وقفة وفتور ثم ينهضَ إلى طلبه، قلت: لا بد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان:

1 - إما أن يقف ليُجِمَّ نفسه ويُعدَّها للسير، فهذا وقفته سيرٌ ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شِرَّةً ولكل شِرَّة فترة.

2 - وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخَّره ولا بد، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووثب وجَمَز واشتد سعيا ليلحقَ الركبَ، وإن استمر مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأَ منها وأنزلَ دركا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر منه وأصعب[1].

10 - حفظ الوقت

قال ابن الجوزي: نقلت في خط أبي الوفاء بن عقيل أنه كُتب إليه لأجل وسوسة: أما بعد فإن **أَجَلَّ محصول عند العقلاء بإجماع الفقهاء الوقت**، فهو غنيمة ينتهز فيها الغرض والتكاليفُ كثيرة والأوقات خاطفة[2].

وقال النووي: ينبغي أن يكون حريصا على التعليم مواظبا عليه في جميع أوقاته ليلا ونهارا حَضَرا وسفرا، ولا يُذهبَ من أوقاته شيئا في غير العلم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدرا لا بد منه ونحوِهما كاستراحةٍ يسيرة لإزالة الملل وشبهِ ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوَّتها، وقد قال الشافعي رحمه الله في

(1) مدارج السالكين 267/1 - 268

(2) المنتظم 24/17، وتلبيس إبليس (ص 122)

رسالته: حقٌّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبرِ على كل عارض دون طلبه، وإخلاصِ النية لله تعالى في إدراك علمه نصا واستنباطا، والرغبةِ إلى الله تعالى في العون عليه[1].

وقال ابن الجوزي: ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدرَ وقته، فلا يُضيع منه لحظةً في غير قُربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: « نية المؤمن خير من عمله » [2]، وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات، فنُقل عن عامر بن عبد قيس أن رجلا قال له: كلمني، فقال له: أمسك الشمس، وقال ابن ثابت البناني: ذهبت ألقن أبي، فقال: يا بني دعني، فإني في وردي السادس، ودخلوا على بعض السلف عند موته وهو يصلي، فقيل له، فقال: الآن تُطوى صحيفتي، فإذا علم الإنسان – وإن بالغ في الجِد – بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته، فإن كان له شيء من الدنيا، وقف وقفا وغرس غرسا وأجرى نهرا، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده، فيكون الأجر له، أو أن يصنف كتابا من العلم، فإن تصنيف العالِم ولدُه المخلد، وأن يكون عاملا بالخير، عالما فيه، فينقل من فعله ما يقتدي الغير به، فذلك الذي لم يمت.

.... قد مات قوم وهم في الناس أحياء[3]

---

(1) مقدمة المجموع 37/1

(2) قال الهيثمي في مجمع الزوائد 228/1: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار الجرشي لم أر من ذكر له ترجمة. وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف. وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص 250): قال ابن دحية: لا يصح وقال البيهقي: إسناده ضعيف وله شواهد.

(3) صيد الخاطر (ص 33 – 34)

قال حسن البنا في « رسالة المؤتمر الخامس »: فإذا سألتَ أحدهم عما يحمله على هذه الجَلسة الفارغة المملة، قال لك: أقتل الوقت، وما درى هذا المسكين أن من يقتل وقتَه إنما يقتل نفسَه، فإنما الوقت هو الحياة[1]، قالت رابعة لسفيان الثوري: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل[2].

قال ابن الجوزي: من أجال على خاطره ذِكرَ الجنة التي لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم، بل لذاتُها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجِدِّ ههنا، انتهب هذا الزمانَ فلم ينم إلا ضرورةً، ولم يَغفَل عن عِمارة لحظة[3].

وفي وصية الإمام ابن قدامة صاحبِ « المغني » ما لفظه: فاغتنم – رحمك الله – حياتَك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفَس ينقص به جزءٌ منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل جزء منه جوهرة نفيسة لا عَدْل لها ولا خَلَف منها، فإن بهذه الحياة اليسيرة خلودَ الأبد في النعيم أو العذاب الأليم، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد علمت أن كل نفَس يعدل أكثر من ألف ألف ألف عام في نعيم لا خطر له أو خلاف ذلك، وما كان هكذا فلا قيمة له، فلا تُضيعْ جواهر عمرك النفيسة بغير عمل، ولا تُذهبْها بغير عوض، واجتهد أن لا يخلوَ نفَس من أنفاسك إلا في عمل طاعة أو قربة تتقرب بها، فإنك لو كانت معك جوهرة من جواهر الدنيا لساءك ذهابها فكيف تُفَرِّط في ساعاتك وأوقاتك، وكيف لا تحزنْ على عمرك الذاهب بغير عوض، انتهى[4].

---

(1) رسائل حسن البنا

(2) وفيات الأعيان 286/2

(3) صيد الخاطر (ص 336)

(4) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني 448/2 - 449

وقال أبو إسماعيل الهروي في « منازل السائرين »: وإنما تُستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل، ومعرفة الأيام، والسلامة من الأغراض، قال ابن القيم في شرحه « مدارج السالكين »: وأما معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامَه التي تخصه وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان ويعلم قِصَرها وأنها أنفاس معدودة منصرمة كل نفس منها يقابله آلافُ آلافٍ من السنين في دار البقاء، فليس لهذه الأيام الخالية قطٌّ نسبةٌ إلى أيام البقاء، والعبد منساق زمنه وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم، وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع، فما أولاه أن لا يصرف منها نفَسا إلا في أحب الأمور إلى الله، فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحبَّ لكان مفرطا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه، فكيف إذا صرفه فيما يَمقتُه عليه ربه، فالله المستعان ولا قوة إلا به[1].

ومن شديد حرصهم على الوقت أنهم كانوا يستثقلون الأوقات التي تتطلبها حوائجهم الطبيعية، فيتحيلون في دفعها وتقليلها ما استطاعوا حتى لا تزاحم ما شمروا له من التحصيل.

فقد كان الخليل يقول: أثقل ساعات عليَّ ساعةٌ آكل فيها[2].

وكان داود الطائي يستف الفتيت ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءةُ خمسين آية، وكان عثمان الباقلاني دائمَ الذكر لله تعالى، فقال: إني وقتَ الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر[3].

وقال ابن عقيل في فنونه: أنا أقصرُ بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سَفَّ الكعك وتحَسِّيَه بالماء على الخبزة لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها فيه[1].

---

(1) مدارج السالكين 448/1

(2) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 87)

(3) صيد الخاطر (ص 492)

وقال الفخر الرازي: والله إنني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال في طلب العلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز[2].

ومن شعر أبي الوليد الباجي المشهور:

إذا كنت أعلم علما يقينا بأنَّ جميعَ حياتي كساعة

فلم لا أكون ضَنينا بها وأجعلها في صلاح وطاعة[3]

ولذا فقد كانوا يصلون الليل بالنهار في المطالعة والتحصيل والتصنيف.

قال الربيع: لم أر الشافعي ﷺ آكلا بنهار ولا نائما بليل لاشتغاله بالتصنيف[4].

وقال ابن عساكر في ترجمة إمام الحرمين الجويني: كان يَصِل الليل بالنهار في التحصيل[5].

وقال ابن خَلِّكان في ترجمة ابن سينا: وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة[6].

وقال ابن فَرْحون في ترجمة ابن رشد الحفيد: عُنِي بالعلم من صغره إلى كبره حتى حكي أنه لم يدعِ النظرَ ولا القراءة مُذْ عقَلَ إلا ليلةَ وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله، وأنه سود فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة[7].

وذكر المبرد أنه ما رأى أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ وكان إذا وقع بيده كتاب قرأه كلَّه[1]، وإسماعيل القاضي ما دخلت إليه إلا وبيده كتاب ينظر فيه، والفتح

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 325/1

(2) مقدمة تحقيق المحصول لطه جابر العلواني 34/1

(3) ترتيب المدارك 125/8

(4) مقدمة المجموع للنووي 38/1، وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص 104 - 105)

(5) تبيين كذب المفتري (ص 280)

(6) وفيات الأعيان 158/2

(7) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص 284)

بن خاقان كان يحمل الكتاب في خفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل لأمر نظر فيه وهو يمشي، وكذلك في رجوعه[2].

وحكي عن ثعلب أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرط عليه أن يوسع له مقدار مِسْوَرة، يضع فيها كتابا ويقرأ[3].

وكان الحافظ الخطيب يمشي وفي يده جزء يطالعه[4]، وكان أبو بكر الخياط النحوي يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جُرُف أو خبطته دابة[5].

وقد ذكر ابن القيم أن من علامات صحة القلب: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعا من أشد الناس شُحا بماله[6].

وفي « تذكرة الحفاظ » للذهبي في ترجمة الإمام الحافظ الكبير محدث الشام أبي القاسم ابن عساكر: قال المحدث بهاء الدين القاسم: كان أبي رحمه الله يحاسب نفسه على لحظة تذهب[7].

وقال ابن عساكر في ترجمة سليم الرازي: وحُدثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس لا يدع وقتا يمضي عليه بغير فائدة: إما ينسخ أو يدرس أو يقرأ وينسخ شيئا كثيرا، ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يوما إلى داره ورجع فقال: قد قرأت جزءا في طريقي، قال: وحدثني المؤمل بن الحسن أنه رأى سليما حفي عليه

---

(1) قال الذهبي في ترجمة الجاحظ: قيل: لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنه كان يكتري دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة. سير أعلام النبلاء 527/11

(2) تاريخ الإسلام للذهبي 373/18

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 77)

(4) سير أعلام النبلاء 281/18

(5) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 77)

(6) إغاثة اللهفان 72/1

(7) تذكرة الحفاظ للذهبي 84/4

القلم فإلى أن قَطَّه جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ، أو كما قال[1].

وقال ابن رجب في ترجمة ابن عقيل: قال ابن الجوزي: وكان دائمَ التشاغل بالعلم، حتى إني رأيت بخطه: إني لا يحل لي أن أُضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة[2].

وقال الصفدي في « أعيان العصر » في ترجمة ابن تيمية: وكان من صغره حريصا على الطلب، مُجِدا على التحصيل والدأب، لا يؤثر على الاشتغال لذةً، ولا يرى أن تضيع لحظةٌ منه في البطالة فذة، يذهلُ عن نفسه ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلا إلا إذا أُحضِر لديه، ولا يرتاح إلى طعام ولا شراب في أبرَديه، قيل: إن أباه وأخاه وأهله وآخرين ممن يلوذون بظله سألوه أن يروح معهم يومَ سبت ليتفرج، فهرب منهم وما ألوى عليهم ولا عرَّج، فلما عادوا آخرَ النهار لاموه على تخلفه وتركِه لاتباعهم وما انفرده من تكلفه، فقال: أنتم ما نزيد لكم شيئا ولا تجدد، وأنا حفظت في غيبتكم هذا المجلد، وكان ذلك كتاب « جنة الناظر وجنة المناظر » [3]، وهو مجلد صغير، وأمره شهير[4].

---

(1) تبيين كذب المفتري (ص 263) ، وقال ابن خلكان في ترجمته له: كان لا يخلو له وقت عن اشتغال، حتى إنه كان إذا برى القلم قرأ القرآن أو سبح، وكذلك إذا كان مارا في الطريق وغير ذلك من الأوقات التي لا يمكن الاشتغال فيها بعلم. وفيات الأعيان 398/2

(2) ذيل طبقات الحنابلة 324/1

(3) قال البغدادي في هدية العارفين 212/1: ابن الماشطة إسماعيل بن علي بن جعفر البغدادي الأزجي فخر الدين أبو محمد الحنبلي، يعرف بابن الماشطة وأيضا بابن الفراء، ولد سنة 549 وتوفي سنة 601 إحدى وستمائة، صنف تعليقة في الخلاف مشهور "جنة الناظر وجنة المناظر".

(4) أعيان العصر وأعوان النصر 236/1

وقد أوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه ومتى اجتمعتم تحدثتم[1].

قال ابن الجوزي: رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان، وكان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل: أعرف من يَعُدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة، ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك، فقال: أَصْدُقُكم كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم، وجاء رجل من المتعبدين إلى سَرِيٍّ السَّقَطي فرأى عنده جماعةً فقال: صِرتَ مناخَ البطالين، ثم مضى ولم يجلس.

ومتى لان المزور طمع فيه الزائر، فأطال الجلوس فلم يسلم من أذى، وقد كان جماعة قعودا عند معروف فأطالوا فقال: إن ملَك الشمس لا يفتر في سَوقها أفما تريدون القيام[2].

وقال ابن الجوزي: ولقد شاهدت خَلقا كثيرا لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثرَ النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرُّخْص إلى غير ذلك، **فعلمت أن الله تعالى لم يُطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾** [3].

قال الهروي في « منازل السائرين »: الثالث . يعني من مراتب اليقظة .: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام والتنصل من تضييعها والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها. قال ابن القيم في شرحه « مدارج السالكين »: يعني أنه يعرف ما

---

(1) صيد الخاطر (ص 492)

(2) صيد الخاطر (ص 491 - 492)

(3) صيد الخاطر (ص 241)

معه من الزيادة والنقصان فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثمن لها، ويبخل بساعاته بل بأنفاسه عن ذهابها ضياعا في غير ما يقربه إلى الله، فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس مع تفاوتهم في قدره قِلةً وكثرة، فكل نَفَس يخرج في غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد في معاده ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به[1].

11 - قطع العلائق

قال الخطيب البغدادي: ينبغي للمتفقه أن يقطع العلائق، ويطرح الشواغل، فإنها موانع عن حفظ العلم، وقواطعُ عن درس الفقيه[2].

وقال أبو حامد الغزالي: الوظيفة الثانية: أن يُقلِّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويَبعُد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلَّك فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضَه على خطر، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنَشِفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع[3].

وقال النووي: ينبغي أن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل، ويرضى باليسير من القوت ويصبرَ على ضيق العيش، قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذُلِّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح، وقال أيضا: لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل... وقال أبو حنيفة رحمه الله: يستعان على الفقه بجمع الهم ويستعان على حذف العلائق بأخذ

(1) مدارج السالكين 143/1 - 144

(2) الفقيه والمتفقه 183/2

(3) إحياء علوم الدين 50/1

اليسير عند الحاجة ولا يزد، وقال ابراهيم الآجري: من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم[1].

قال ابن العربي في « أحكام القرآن »: نكتة: كان أبو الفضل المراغي يقرأ بمدينة السلام، فكانت الكتب تأتي إليه من بلده، فيضعها في صندوق، ولا يقرأ منها واحدا مخافةَ أن يطلع فيها على ما يزعجه أو يقطع به عن طلبه، فلما كان بعد خمسة أعوام، وقضى غرضا من الطلب، وعزم على الرحيل شد رحله، وأبرز كتبه، وأخرج تلك الرسائل وقرأ منها ما لو أن واحدة منها قرأها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم، فحَمِد الله تعالى[2].

وقال الإمام محمد بن الحسن لجاريته، وقد أخبرته عن نفاد الدقيق في البيت، وهو في درسه: قاتلك الله، لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه كنت أعددتها في نفسي[3].

وعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله عز وجل ما حدثت حديثا، ثم تلا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَاب ﴾، و﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾، وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإخواننا الأنصار كان يَشغَلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسولَ الله ﷺ لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون.

قال ابن عبد البر: في هذا الحديث من الفقه معانٍ: قال: ومنها ملازمة العلماء والرضا باليسير للرغبة في العلم، ومنها الإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وكسبها[4].

---

(1) مقدمة المجموع 35/1

(2) أحكام القرآن 154/2، والفكر السامي 11/2

(3) أمتنا بين قرنين للشيخ يوسف القرضاوي (ص 173)

(4) جامع بيان العلم 409/1

وفي الصحيحين أن أبا موسى الأشعري ﷺ استأذن على عمر بن الخطاب ﷺ فلم يؤذن له، وكأنه كان مشغولا، فرجع أبو موسى ففرغ عمر فقال: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له، قيل: قد رجع، فدعاه فقال: كنا نؤمر بذلك، فقال: تأتيني على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم فقالوا: لا يشهد على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدري، فذهب بأبي سعيد الخدري فقال عمر: أخَفِي هذا عليَّ من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهاني الصَّفْق بالأسواق، يعني الخروج إلى تجارة.

قال ابن عبد البر: في قوله: ألهاني عنه الصفق بالأسواق، دليل على أن طلب الدنيا يمنع من استفادة العلم، وأن كل ما ازداد المرء طلبا لها ازداد جهلا وقَلَّ عمله، والله أعلم[1].

وقد قال سقراط: الاشتغال بطلب أسباب المعيشة مانع عن التعلم[2]، وكان بعض الفلاسفة لا يُعَلِّم أحدا يتعلق بشيء من الدنيا، ويقول: العلم أجل من أن يشتغل عنه بغيره[3].

وقال الشيخ بكر أبو زيد في تقديمه لكتاب «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية»: لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال به، ولا تكل من البحث فيه، وقَلَّ أن يدخل في علم إلا ويفتح له فيه، ولهذا قال الذهبي: « ما رأيته إلا ببطن كتاب » . وفي غير هذا « الجامع » قال السخاوي في «الجواهر والدرر 117/1» بسنده عن الشمس ابن الديري قال: سمعت علاء الدين البسطامي ببيت المقدس يقول: وقد سأله وهل رأيتَ الشيخَ تقي الدين ابن تيمية ؟ فقال: نعم، قلت: فكيف كانت صفته، فقال: هل رأيت قبة الصخرة ؟ قلت: نعم،

(1) التمهيد 202/3
(2) أبجد العلوم 134/1
(3) الفقيه والمتفقه 184/2

قال: كان كقبة الصخرة مُلِيء كتبا ولها لسان ينطق انتهى. هذا مع انصراف عن أمور الدنيا انصرافا كليا، إذ ليس له من المعلوم إلا اليسير، وقد تكفل أخوه شرف الدين بشؤونه. وهذا يفيد الدرس الآتي: وهو عدم اجتماع الضدين فكما أن:

حبُّ الكتاب وحب ألحان الغنا   في قلب عبد ليس يجتمعان

فحب العلم وإشغالُ القلب والبدن بالمال وجمعه وتنميته والمكاثرة فيه لا يجتمعان، فكلما مَنَحْتَ هذا من جهدك ووقتك ضاع من ذاك، فلنَبْك على حالنا انتهى كلام الشيخ بكر.

وليُراعِ الطالبُ القَصْد في خلطته وعشرته للناس، وليكن إلى التقليل أميلَ، فإنه أعون على التحصيل وحفظ الوقت، وهو من أهم ما ينبغي لطالب العلم، خصوصا لمن كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع شر آفة، وآفة الخلطة ضياع العمر بغير فائدة، والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه فقد قال علي ﵁ في حديث طويل: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، الحديثَ، قال الخطيب البغدادي: هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنًى، وأشرفِها لفظا، وتقسيمُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهايةِ السداد، لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل، إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم وطلبه اهـ، وكان ابن مسعود يقول: « اغد عالما أو متعلما ولا تغد فيما بين ذلك، فإن ما بين ذلك جاهل » ، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه، فليتلطف في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسُرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: الدفع أسهل من الرفع، فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحا، دَيِّنا، تقيا،

وَرِعا، كثيرَ الخير، قليل الشر، حَسَن المداراة، قليل المماراة، فإن نسي ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضَجِر صبَّره[1].

قال الخطابي: العزلة معينة لمن أراد نظرا في علم أو إثارةً لدفينِ رأي واستنباطا لحكمة، لأن شيئا منها لا يجيء إلا مع خلاء الذراع وفراغ القلب، ومخالطةُ الناس ملهاة ومَشغَلة[2].

وقال ابن الجوزي: والذي يعين على اغتنام الزمان الانفرادُ والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حاجةٍ مهمة لمن يلقى، وقلةُ الأكل، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياعِ الليل، ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته[3].

وقال ابن الجوزي أيضا: فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا من العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل، والعزلة عن الشر حِمْية، والحمية سبب العافية[4].

12 - التدرج بالترقي من الأدنى إلى الأعلى وتقديم المهم

قال ابن عبد البر: طلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدا ضل، ومن تعداه مجتهدا زل[5].

---

(1) انظر آداب العلماء والمتعلمين للحسين بن القاسم اليمني، والفقيه والمتفقه 182/1، وجامع بيان العلم 144/1

(2) العزلة (ص 34)

(3) صيد الخاطر (ص 493)

(4) صيد الخاطر (ص 341)

(5) جامع بيان العلم وفضله 1129/2

وقال الخطيب البغدادي: ينبغي له أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر، بل يأخذ قليلا قليلا، حسب ما يحتمله حفظه ويقرب من فهمه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [1].

وقال الماوردي: اعلم أن للعلوم أوائلَ تؤدي إلى أواخرها، ومداخلَ تُفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهيَ إلى أواخرها، وبمداخلها لتفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخِرَ قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى[2].

عن يونس بن يزيد قال: قال لي ابن شهاب: يا يونس، لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام[3].

وقال الإمام أبو عبد الله بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي شيخ الديار المصرية في علم اللسان[4]:

اليومَ شيءٌ وغداً مثله ... مِنْ نُخَبِ العلم التي تلتقط

يحصل المرء بها حكمةً ... وإنما السيل اجتماع النقط

وقال الغزالي: الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه.

---

(1) الفقيه والمتفقه 201/2

(2) أدب الدنيا والدين (ص 48)

(3) جامع بيان العلم 431/1

(4) بغية الوعاة 14/1

ثم قال: الوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج[1].

ثم على المعلِّم أيضا مراعاة التدرج في الإلقاء، قال النووي في باب آداب المعلم: ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجا شيئا فشيئا لتجتمع لهم مع طول الزمان جمل كثيرات[2].

وقال ابن خلدون في « المقدمة »: الفصل السابع والثلاثون في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا، يلقي عليه أولًا مسائلَ من كل باب من الفن هي أصولُ ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعدادَه لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهِه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه، وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم

---

(1) إحياء علوم الدين 52/1

(2) مقدمة المجموع 33/1

ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن، وإذا أُلقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كَلَّ ذهنه عنها وحسِب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم، ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا، ولا يخلِط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيَه من أوله إلى آخره ويُحصِّل أغراضَه ويستولي منه على ملكة بها ينفُذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصَّل ملكةً ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خُلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم، والله يهدي من يشاء[1].

ثم ليعلم الطالب أن العلم بحر لا ساحل له، فمن رام أن يجمع العلم كله فقد أراد ما لا يكون، قال السيوطي: فإن العلم بحر زخار لا يدرك له من قرار، وطود شامخ لا يسلك إلى قُنَّتِه ولا يصار، من أراد السبيل إلى استقصائه لم يبلغ إلى ذلك وصولا، ومن

(1) مقدمة ابن خلدون (ص 734 - 735)

رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلا، كيف وقد قال تعالى مخاطبا لخلقه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [1].

وقد قيل لبعض الحكماء: من يعرف كل العلوم ؟ فقال: كل الناس، وقال بعض العلماء: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة، ولكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم، وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا، وقيل لحماد الراوية: أما تشبع من هذه العلوم ؟ فقال: استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود، فنحن كما قال الشاعر:

إذا قطعنا عَلَما بدا علم .... [2]

قال ابن الجوزي: الموفَّق من طلب المهم، فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل[3]، قال ابن عباس: العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنَه[4].

وقال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» – ذكر تلبيسه على أهل اللغة والأدب –: قد لبس على جمهورهم فشغلهم بعلوم النحو واللغة عن المهمات اللازمة التي هي فرض عين من معرفة ما يلزمهم عِرفانه من العبادات ومما هو أولى بهم من آداب النفوس وصلاح القلوب ومما هو أفضل من علوم التفسير والحديث والفقه[5]، فأذهبوا الزمان كلَّه في علوم لا تُراد لنفسها بل لغيرها، فإن الإنسان إذا فهم الكلمة فينبغي أن يترقى إلى العمل بها، إذ هي مرادة لغيرها، فترى الإنسان منهم لا يكاد يعرف من آداب

---

(1) الإتقان 15/1 – 16

(2) أدب الدنيا والدين (ص 37 – 38)، قال الميداني في مجمع الأمثال 29/1: الجبل يقال له العَلَم: أي: إذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر.

(3) صيد الخاطر (ص 385)

(4) جامع بيان العلم 437/1

(5) العبارة في المطبوع فيها اضطراب، ولعل ما أوردناه هو الصواب، والله أعلم. زهران

الشريعة إلا القليل ولا من الفقه ولا يلتفت إلى تزكية نفسه وصلاح قلبه، ومع هذا ففيهم كِبْر عظيم، وقد خَيَّل لهم إبليس أنكم علماء الإسلام لأن النحو واللغة من علوم الإسلام وبها يعرف معنى القرآن العزيز، ولعمري إن هذا لا ينكر، ولكن معرفة ما يلزم من النحو لإصلاح اللسان وما يحتاج إليه من اللغة في تفسير القرآن والحديث أمر قريب، وهو أمر لازم، وما عدا ذلك فضل لا يحتاج إليه، وإنفاقُ الزمان في تحصيل هذا الفاضل وليس بمهم مع ترك المهم غلطٌ، وإيثاره على ما هو أنفع وأعلى رتبة كالفقه والحديث غَبْن، ولو اتسع العمر لمعرفة الكل كان حسنا ولكن العمر قصير فينبغي إيثار الأهم والأفضل[1].

وقال ابن الجوزي أيضا: قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله، إلا أن طلاب العلم افترقوا، فكلٌّ تدعوه نفسه إلى شيء، فمنهم من أذهب عمره في القراءات، وذاك تفريط في العلم، لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ، وما أقبح القارئ يسأل عن مسألة الفقه وهو لا يدري، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق في روايات القراءات، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعِلَلِه فحسب، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب، ومنهم من يكتب الحديث ويُكثر ولا ينظر في فهم ما كتب، وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يُسأل عن مسألة في الصلاة فلا يدري ما يقول، وكذلك القراء، وكذلك أهل اللغة والنحو، وحدثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال: حدثني ابن المنصوري قال: حضرنا مع أبي محمد بن الخشاب – وكان إمامَ الناس في النحو واللغة – فتذاكروا الفقه، فقال: سلوني عما شئتم، فقال له رجل: إن قيل لنا: رفع اليدين في الصلاة ما هو، فماذا نقول، فقال: هو ركن ! فدَهِشت الجماعة من قلة فقهه، وإنما ينبغي للعاقل أن يأخذ من كل علم طرَفا ثم يهتم بالفقه، ثم ينظر في مقصود

---

(1) تلبيس إبليس (ص 113)

العلوم، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له، وما أبله من يقطع عمره في معرفة علم النجوم، وإنما ينبغي أن يعرف من ذلك اليسير والمنازل لعلم الأوقات[1].

13 - الرحلة وكثرة الشيوخ

قيل للإمام أحمد: رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلا عنده علم كثير أو يرحل ؟ قال: يرحل يكتب عن علماء الأمصار فيشافه الناس ويتعلم منهم[2].

وقال ابن خلدون في « المقدمة »: الفصل الثالث والثلاثون في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيدُ كمالٍ في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفَهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مُخلِّطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتُصحِّح معارفَه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال[3].

---

(1) صيد الخاطر (ص 322 - 323)

(2) فتح الباري لابن حجر 175/1

(3) مقدمة ابن خلدون (ص 744 - 745)

قال أيوب السِّخْتِيَانِيُّ: الذي له في الفقه معلم واحد كالرجل له امرأة واحدة، وقال مطر الوراق: مثل الذي يروي عن عالم واحد مثل الذي له امرأة واحدة إذا حاضت بقي[1].

ومن فوائد تعدد الشيوخ ما رواه ابن عبد البر عن أيوب قال: ليس تعرف خطأَ مُعلمِك حتى تُجالسَ غيرَه[2].

قال النووي: وليحذر من كراهته قراءةَ أصحابه على غيره ممن يُنتفع به، وهذه مصيبة يُبتلى بها بعضُ المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بَيِّنة من صاحبها على سوءِ نيته وفساد طَوِيته، بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجهَ الله تعالى الكريم، فإنه لو أراد اللهَ بتعليمه لَما كرِه ذلك بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعةَ بتعليمه وقد حصلتْ وقد قصد بقراءته على غيري زيادةَ علم فلا عتب عليه، وقد روينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وإمامته أبي محمد الدارمي رحمة الله عليه عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: يا حملة القرآن – أو قال يا حملة العلم – اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عملَه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيَهم يخالف عملهم علمَهم وتخالف سريرتهم علانيتَهم، يجلسون حلقا يباهي بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى، وقد صح عن الإمام الشافعي ﷺ أنه قال: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم – يعني علمه وكتبه – [على] أن لا يُنسب إليَّ حرف منه[3].

(1) جامع بيان العلم 523/1

(2) جامع بيان العلم 988/2، وقد رواه عنه الدارمي بلفظ: إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره. قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(3) التبيان في آداب حملة القرآن (ص 35 – 36)

14 – الأدب مع الشيخ

قال النووي: ينبغي أن ينظر معلمَه بعين الاحترام، ويعتقد كمال أهليته ورجحانَه على أكثر طبقته، فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخِ ما سمعه منه في ذهنه، وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدَّق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تُذهب بركةَ علمه مني، وقال الشافعي رحمه الله: كنت أصفح الورقة بين يدي مالكٍ رحمه الله صفحا رفيقا هيبةً له لئلا يسمع وقْعَها، وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبةً له، وقال حمدان بن الأصفهاني: كنت عند شريك رحمه الله فأتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه وأقبل علينا، ثم عاد لمثل ذلك فقال: أتستخف بأولاد الخلفاء، فقال شريك: لا ولكن العلم أجلُّ عند الله تعالى من أن أضعه، فجثا على ركبتيه، قال شريك: هكذا يُطلب العلم، وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصَّه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تعمدن بعينك غيره، ولا تقولن قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تسار في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذ كسل، ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء[1].

ومن الأدب مع الشيخ أن ينقاد له في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة.

(1) مقدمة المجموع 36/1

ويقال إن الشافعي رحمه الله عوتب على تواضعه للعلماء، فقال:

أُهينُ لهم نفسي فَهُم يكرمونها ولن تُكرَم النفسُ التي لا تُهينها

وأخذ ابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته ومرتبته برِكاب زيد بن ثابت الأنصاري وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، وقال أحمد بن حنبل لخلف الأحمر: لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه، وقال الغزالي: لا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع[1].

وينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه، وقال الخطيب: يقول: أيها العالم، وأيها الحافظ ونحو ذلك، وما تقولون في كذا وما رأيكم في كذا وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته أيضا باسمه إلا مقرونا بما يشعر بتعظيمه كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ كذا، وقال شيخنا أو نحو ذلك[2].

قال ابن مفلح: قال ابن الجوزي: وإذا روى المحدث حديثا قد عرفه السامع، فلا ينبغي أن يداخله فيه، قال عطاء بن أبي رباح: إن الشاب ليحدثني بحديث فأستمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد، ثم روى بإسناده عن خالد بن صفوان قال: إذا رأيتَ محدثا يحدث حديثا قد سمعتَه أو يخبر بخبر قد علمتَه، فلا تشاركْه فيه حرصا على أن يعلم مَن حَضَرَك أنك قد علمته، فإن ذلك خِفةٌ فيك وسوء أدب. وروى أبو حفص العكبري في الأدب له عن ابن وهب قال: إني لأسمع من الرجل الحديث قد سمعته قبل أن يجتمع أبواه فأنصت له كأني لم أسمعه، ثم روى ما تقدم عن عطاء ثم قال: سمعت أبا علي الحسن بن عبد الله جليس أبي أحمد الفقيه البغدادي يقول: يُروى عن سفيان الثوري أنه قال: وتراه يعجب من حديث ولعله أدرى به[3].

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم (ص 187 - 188)

(2) تذكرة السامع والمتكلم (ص 190)

(3) الآداب الشرعية 170/2

قال الحسين بن علي لابنه: يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يُمْسِك[1].

وقال الخطيب البغدادي: ولا ينبغي أن يستفهم من الفقيه حكم الفصل الذي يذكره له قبل أن يتمم الفقيه ذكره، فربما وقع له البيان عند انتهاء الكلام، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾، فإن انتهى كلام الفقيه، ولم يَبِن له الحكم سأله عنه حينئذ، فإن شفاء العي السؤال[2].

وقال ابن الجوزي: ومتى أشكل شيء من الحديث على الطالب صبر حتى ينتهي الحديث، ثم يستفهم الشيخ بأدب ولطف ولا يقطع عليه في وسط الحديث.

وروى ابن بطة عن إبراهيم بن الجنيد قال حكيم لابنه: تعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالُك للمتكلم حتى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة له في حديث أنت تعرفه وأنشد:

ولا تشارك في الحديث أهله وإن عرفت فرعه وأصله

وروي أيضا عن الهيثم بن عدي قال: قالت الحكماء: من الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه، والاعتراض فيه لقطع حديثه، وروي أيضا عن مجاهد قال لقمان لابنه: إياك إذا سُئل غيرُك أن تكون أنت المجيب كأنك أصبت غنيمة أو ظفرت بعطية، فإنك إن فعلت ذلك أزريت بالمسئول، وعنفت السائل، ودللت السفهاء على سفاهة حلمك وسوء أدبك، قال ابن بطة: كنت عند أبي عمر الزاهد

---

(1) جامع بيان العلم 519/1

(2) الفقيه والمتفقه 201/2

فسئل عن مسألة فبادرت أنا فأجبت السائل، فالتفت إليَّ فقال لي: تعرف الفضوليات المنتقبات، يعني: أنت فضولي فأخجلني[1].

قال النووي: وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه وسوء خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلاتٍ صحيحةً، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق، وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وأظهر أن الذنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له دينا ودنيا وأبقى لقلب شيخه، وقد قالوا: من لم يصبر على ذل التعلم بقي عمرَه في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالبا فعززت مطلوبا[2].

ومن أدبه معه كما قال ابن جماعة: أن يعرف له حَقَّه ولا ينسى له فضلَه، قال شعبة: كنت إذا سمعت من الرجل الحديثَ كنت له عبدا ما حَيِيَ، وقال: ما سمعت من أحد شيئا إلا واختلفت إليه أكثر مما سمعت منه. ومن ذلك أن يُعظم حرمته ويرد غيبته ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس، وينبغي أن يدعو له مدةَ حياته ويرعى ذريته وأقاربه وأَوُدَّاءَه بعد وفاته، ويتعمد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه[3].

15 - تقييد العلم

قال العز بن عبد السلام: النسيان غالب على الإنسان[4]، وقال العراقي: الحفظ خَوَّان[1].

---

(1) الآداب الشرعية 170/2 - 171

(2) مقدمة المجموع 37/1 - 38

(3) تذكرة السامع والمتكلم (ص 190 - 191)

(4) قواعد الأحكام 3/2

وروى الدارمي عن حكيم بن جابر قال: قال عبد الله: إن لكل شيء آفةً وآفةُ العلم النسيان[2].

وقد قال الذهبي في ترجمة البزار الحافظ العلامة أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري صاحب المسند الكبير المعلل: ذكره الدارقطني فأثنى عليه وقال: ثقة يخطئ ويتَّكل على حفظه[3].

وقال الذهبي أيضا في ترجمة الحافظ الكبير أبي داود الطيالسي سليمان بن داود بن الجارود: كان يتكل على حفظه فغلِط في أحاديث[4]، وقال فيه أيضا: وقد أخطأ في عدة أحاديث، لكونه كان يتكل على حفظه ولا يروي من أصله.

قال الذهبي: فالورع أن المحدث لا يحدث إلا من كتاب، كما كان يفعل ويوصي به إمام المحدثين أحمد بن حنبل[5]، وقال أيضا: التحديث من الحفظ يقع فيه الوهم، بخلاف الرواية من كتاب محرر[6].

قال أبو الزناد: كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب كلما سمع[7].

وروى الدارمي عن ثمامة بن عبد الله بن أنس أن أنسا كان يقول لبنيه: يا بني قيدوا هذا العلم[8]، وروى الدارمي عن معاوية بن قرة أبي إياس يقول: كان يقال: من لم

---

(1) تدريب الراوي للسيوطي 582/2

(2) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(3) تذكرة الحفاظ 166/2

(4) تذكرة الحفاظ 257/1

(5) سير أعلام النبلاء 383/9

(6) سير أعلام النبلاء 114/7

(7) تذكرة الحفاظ 83/1

(8) قال حسين سليم أسد: إسناده حسن من أجل عبد الله بن المثنى.

يكتب علمه لم يعد علمه علما[1].

وقال ابن الجوزي في مقدمة « صيد الخاطر »: لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تُعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظُ ما يخطر لكيلا يُنسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة، وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه[2].

وقال النووي: ولا يحتقرن فائدةً يراها أو يسمعها في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها، ثم يواظب على مطالعة ما كتبه[3].

وقال صديق حسن خان: ولا بد أن تكون معه محبرة في كل وقت حتى يكتب ما يسمع من الفوائد ويستنبطه من الزوائد، فإن العلم صيد والكتابة قيد[4].

وقد خرج الحميدي مع الشافعي إلى مصر، وكان هو ساكنا في العلو، وهم في الأوساط، فكان يُرى المصباح في الليل في غرفته فلما أتوه إذا قرطاس ودواة، فقيل له في ذلك، فقال: تفكرت في معنى حديث أو في مسألة، فخِفت أن يذهب عليَّ، فأمرتُ بالمصباح وكتبتُه[5].

وكان الإمام البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره ثم يطفئ سراجه ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى كان يتعدد منه ذلك قريبا من عشرين مرة[6].

---

(1) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(2) صيد الخاطر (ص 23)

(3) مقدمة المجموع 39/1

(4) أبجد العلوم 136/1

(5) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي (ص 35)

(6) البداية والنهاية لابن كثير 25/11

وقال الشيخ بكر أبو زيد في « حلية طالب العلم » - حفظ العلم كتابة[1] -:

ابذُل الجهد في حفظ العلم (حفظ كتاب)، لأن تقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع، وقصر لمسافة البحث عند الاحتياج، لا سيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ومن أجَلِّ فوائده أنه عند كبر السن وضعف القوى يكون لديك مادة تستجر منها مادة تكتب فيها بلا عناء في البحث والتقصي.

ولذا فاجعل لك (كُنَاشا)[2] أو (مذكرة) لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، وإن استعملت غلاف الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك، فحسن، ثم تنقل ما يجتمع لك بعدُ في مذكرة، مرتِّبا له على الموضوعات، مقيدا رأس المسألة، واسم الكتاب، ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب على ما قيدته: « نُقِل » ، حتى لا يختلط بما لم يُنقل، كما تكتب: « بلغ صفحة كذا » فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب حتى لا يفوتك ما لم تبلغه قراءة[3].

وللعلماء مؤلفات عدة في هذا، منها: « بدائع الفوائد » لابن القيم، و« خبايا الزاويا » للزركشي، ومنها: كتاب « الإغفال » و« بقايا الخبايا » وغيرها.

وعليه فقَيِّدِ العلم بالكتاب[4]، لا سيما بدائع الفوائد في غير مظانها، وخبايا الزوايا في غير مساقها، ودررا منثورة تراها وتسمعها تخشى فواتها، وهكذا فإن الحفظ يضعُف، والنسيانَ يعرِض، قال الشعبي: إذا سمعت شيئاً، فاكتبه، ولو في الحائط. رواه خيثمة.

(1) الجامع للخطيب (16/2، 183-185).

(2) الكناش بضم الكاف، وتخفف النون، وشين معجمه، على وزن غراب، لفظ سرياني بمعنى المجموعة، والتذكرة. وانظر التراتيب الإدارية (270/2).

(3) قال زهران: وقد تهتدي إلى غير الطريقة التي ذكرها الشيخ، وإنما المقصود اقتناص الفوائد وتقييدها.

(4) وقد صح نحو هذا الأمر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فانظره في السلسلة الصحيحة، (رقم 2026).

وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمع فرتبه في (تذكرة) أو (كناش) على الموضوعات، فإنه يسعفك في أضيق الأوقات التي قد يعجز عن الإدراك فيها كبار الأثبات[1].

16 - العناية بالصحة

قال ابن الجوزي: البدن مطية، وإجهاد السير مظنة الانقطاع[2].

وقال أبو هلال العسكري: رأى معلمُ محمد بن داود ابن الجراح على دفتر له دما فسأله عنه، فقال: إني كنت على السراج أدرس في الليالي الحارة فأرعُف، فقال له: إنما تطلب العلم لنفسك، فإذا أتلفت نفسك فما ينفعك علمك وقد قال عمر بن عبد العزيز: إن نفسي مطيتي فإذا حَمَلت عليها خسِرتها، فقال له محمد: قال بعض الأوائل: إن لم تصبر على تعب العلم صبَرت على شقاء الجهل، فقال المعلم: صدق هذا القائل، ولكن تجاوز الاعتدال في طلب العلم ربما أدى إلى تضييعه.

قال أبو هلال: وهذا مثل قول النبي ﷺ: ألا إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنْبَتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرا أبقى. والعرب تقول: شر السير الحقحقة، وهي شدة السير. وقال الشاعر:

نقطع بالنزول الأرض عنا وطول الأرض يقطعه النزول

يريد أنك إذا نزلت وسرت بلغت القصد، وإن واصلت السير قطع بك.

قلنا: فخرج محمد ابن داود أبرعَ الناس في العلم والحفظ[3].

وقال ابن عاشور وهو يعدد أسباب تأخر التعليم خصوصا ما هو أشد تعلقا بتونس ومجاوريها[1]: السبب التاسع: عروه من ملاحظة المصالح الصحية، ففي الحديث:

---

(1) حلية طالب العلم (ص 175 - 176)

(2) صيد الخاطر (ص 219)

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 87 - 88)

« إن لجسدك عليك حقا »، وقد قيل: « العقل السليم في الجسد السليم »، وقال الفيلسوف «بونالد» [2]: « الإنسان عقل تخدمه الأعضاء »، والإنسان خُلق ليعلم ويعمل، فالعلم بالعقل والعمل بالبدن، وهما متكافئان في وجوب التحفظ عليهما، ونحن لم نر الاعتناء بذلك في نُظُم التعليم، ونرى أشغال التلامذة وأوقاتهم ومجالسهم ومساكنهم ومحل درسهم، كل ذلك قاضيا بإنهاك قواهم القوية، من ذلك التعليم بعد الأكل، وتقليل الحركة والمشي والعلم خصوصا في وقت الشتاء، وإكثار الدروس المقتضي كثرة النصب في حفظ المتون ومراجعتها.

وقد شاع من تقاليد الفئة العلمية عندنا أن من لوازم الصفة العلمية قلة المشي، ومشي الهُوَينا، وقلة الحركة، وإلا عُد ذلك من خطل الرأي وسوء السيرة الأدبية حتى إذا ترقوا في الخطط العلمية عكفوا في بيوتهم، لا أصل بكم إلى أهل الخطط الشرعية والمرشِّحين أنفسَهم لها.

وقد كان أمر الراحة الصيفية مغفولا عنه في جملة ما يُغفل عنه من المصالح الصحية فسُنَّ ذلك سنة 1312 ، وينقل عن ابن عرفة أنه كان يترك الدرس أربعين يوما في الصيف وأربعين في الشتاء، لكن يجب على التلامذة أن لا يفرُغوا مدة الاستراحة من عمل ما، بل يعمروها بتقسيمٍ حسَن في مطالعة الكتب التي لا يجدون في مدة الدراسة وقتا لمطالعتها، مع الاشتغال بأسباب الرياضات البدنية التي تقل بالضرورة في وقت التعليم من المشي والركوب، وإذا كانوا من التلامذة المرتقين أمكنهم أن يشتغلوا بمسامرات أدبية وعلمية في نواديهم، وبتحرير مقالات ومجادلات بينهم ليكتسبوا صناعة التحرير ويعتادوا الاجتماع والتنظيم[3].

---

(1) كما في (ص 109) من « أليس الصبح بقريب ».

(2) عالم فرنسوي (1754 – 1840)

(3) أليس الصبح بقريب (ص 113 – 114)

الفصل التاسع
في أن الانقطاع عن الطلب لا يكون إلا بالانقطاع عن الدنيا

قال صديق حسن خان: ومن الشروط: العزم والثبات على التعلم إلى آخر العمر كما قيل: الطلب من المهد إلى اللحد، وقال سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم ﴾ [1].

وقال ابن الجوزي: أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافيا استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعا له من الاستفادة[2].

وقال ابن رجب: ينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصرا عن الدرجات العالية، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص[3].

وقال أبو شامة: ينبغي للطالب أن يكون أبدا في طلب ازدياد علم ما لم يعلمه من أي شخص كان، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، وعليه الإنصاف وترك التقليد واتباع الدليل، فكل أحد يخطئ ويصيب إلا من شهدت له الشريعة بالعصمة، وهو النبي ﷺ [4].

---

(1) أبجد العلوم 135/1

(2) صيد الخاطر (ص 127)

(3) جامع العلوم والحكم 309/1

(4) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول (ص 69)

وقال ابن تيمية: الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان، فإذا تبين له من العلم ما كان خافيا عليه اتبعه[1]، وقد قال ابن رجب في ترجمة ابن تيمية: ولم يزل في علو وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره[2].

قال أبو هلال العسكري: من عرف العلم وفضله، لم يقض نَهمتَه منه ولم يشبع من جمعه طولَ عمره، ولهذا قال النبي ﷺ فيما أخبرنا به الشيخ أبو أحمد عن ابن منيع عن أبي خيثمة عن جرير عن الليث عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: منهومان لا يقضي واحد منهما نهمته: منهوم في طلب العلم، ومنهوم في طلب الدنيا. وقيل: يا رسول الله من أجوع الناس قال: طالب العلم، قيل: فمن أشبعهم قال: الذي لا يبتغيه. وقال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالما ما تعلم، فإذا ترك كان أجهلَ ما يكون[3].

وقال ابن أبي غسان: لا تزال عالما ما كنت متعلما فإذا استغنيت كنت جاهلا[4].

وقال أبو حنيفة: من ظن أنه يستغني عن التعليم، فليبك على نفسه[5].

وقال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [6]، قال ابن سيرين: ما زال قتادة متعلما حتى مات[7].

---

(1) مجموع الفتاوى 253/22

(2) ذيل طبقات الحنابلة 496/4

(3) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 59 – 60)

(4) جامع بيان العلم 408/1

(5) الفقيه والمتفقه 79/2

(6) جامع بيان العلم 418/1

(7) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 62)

وروي أن المسيح عليه السلام قيل له: إلى متى يَحسُن التعلم ؟ قال: ما حسُنت الحياة[1].

وقيل لعبد الله ابن المبارك: إلى متى تطلب العلم ؟ قال: أرجو أن تروني فيه إلى أن أموت[2].

وقيل للإمام أحمد بن حنبل: إلى متى يكتب الرجل ؟ قال: حتى يموت[3]، وكان الإمام أحمد يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: هذه سُرُج الإسلام، وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله ؟ فقال: المحبرة إلى المقبرة[4].

وكان أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي من أهل القيروان يقول: والله إني لأحب أن ألقى الله وأنا طالب[5].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: لن يشبع المؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة. رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وصححه، وقال الترمذي: حسن غريب[6]. قال صديق حسن خان: المراد بالخير: العلم، وفيه أن زمان الطلب من المهد إلى اللحد، وأن عاقبة طلب العلم الجنة، وهذه بِشارة وأي بشارة لمن يعلم أو يتعلم، جعلنا الله من أهليه وحشرنا في زمرة ذويه[7]، وقال المباركفوري في قوله ﷺ: حتى يكون منتهاه الجنة، يعني حتى يموت فيدخل الجنة[8].

---

(1) جامع بيان العلم 404/1

(2) ترتيب المدارك للقاضي عياض 39/3

(3) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 140/1

(4) تلبيس إبليس (ص 292)

(5) ترتيب المدارك 91/4

(6) ضعفه الألباني، ورواه ابن حبان أيضا، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف. ورواه الحاكم وصححه.

(7) أبجد العلوم 63/1

(8) تحفة الأحوذي 380/7

الفصل العاشر
في ضرورة إجمام النفس

قال العز بن عبد السلام: للاقتصاد أمثلة، ثم قال: ومنها دراسة العلوم، لا يُكثر منها بحيث يؤدي إلى السآمة والكراهة، ولا يقللها بحيث يُعد مقصرا فيها[1].

وقال النووي: ولا يُحمِّل نفسه ما لا تطيق مخافةَ الملل، وهذا يختلف باختلاف الناس[2].

وقد قال الماوردي: القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد[3].

وقال صديق حسن خان: الحيلة في صرف الأوقات إلى التحصيل: أنه إذا مل من علم اشتغل بآخَر كما قال ابن عباس رضي الله عنهما إذا مل من الكلام مع المتعلمين: هاتوا دواوين الشعراء[4].

وقال ابن جرو الموصلي: ينبغي أن يؤخر الإنسان درسه للأخبار والأشعار لوقت ملله[5].

وقال ابن الجوزي في صدر كتابه « أخبار الحمقى والمغفلين » : وبعد فإني لما شرعت في جمع أخبار الأذكياء وذكرت بعض المنقول عنهم ليكون مثالا يحتذى، لأن أخبار الشجعان تعلم الشجاعة، آثرت أن أجمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أشياء: قال: والثالث: أن يُروِّح الإنسانُ قلبَه بالنظر في سير هؤلاء المبخوسين حظوظا يوم

---

(1) قواعد الأحكام 209/2

(2) مقدمة المجموع 38/1

(3) أدب الدنيا والدين (ص 13)

(4) أبجد العلوم 135/1

(5) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص 66 - 67)

القسمة، فإن النفس قد تمل من الدؤوب في الجِد وترتاح إلى بعض المباح من اللهو، وقد قال رسول الله ﷺ لحنظلة: ساعة وساعة، وعن حنظلة الكاتب أن النبي ﷺ ذكر الجنة والنار وكنا كأنا رأينا رأي عين فخرجت يوما فأتيت أهلي فضحكت معهم فوقع في نفسي شيء فلقيت أبا بكر فقلت: إني قد نافقت، قال: وما ذاك ؟ قلت: كنت عند النبي ﷺ فذكر الجنة والنار فكنا كأنا رأينا رأى العين فأتيت أهلى فضحكت معهم، فقال أبو بكر: إنا لنفعل ذلك، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: يا حنظلة لو كنتم عند أهليكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطريق، يا حنظلة ساعة وساعة، وقال علي بن أبي طالب: روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان، وقال أيضا: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فالتمسوا لها من الحكمة طرفا، وعن أسامة بن زيد قال: روحوا القلوب تعي الذكر، وعن الحسن قال: إن هذه القلوب تحيي وتموت فإذا حييت فاحملوها على النافلة وإذا ماتت فاحملوها على الفريضة، وعن الزهري قال: كان رجل يجالس أصحاب رسول الله ﷺ ويحدثهم فإذا كثروا وثقل عليه الحديث قال: إن الأُذُن مجاجة وإن القلوب حمضة فهاتوا من أشعاركم وأحاديثكم، وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهيةَ أن أحمل عليها من الحق ما يملها، وعن محمد بن إسحاق قال: كان ابن عباس إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة ثم قال: حمضونا، فيأخذ في أحاديث العرب ثم يعود يفعل ذلك مرارا، وعن الزهري أنه كان يقول لأصحابه: هاتوا من أشعاركم هاتوا من حديثكم فإن الأذن مجة والقلب حمض، وقال ابن إسحاق: كان الزهري يحدث ثم يقول: هاتوا من ظرفكم هاتوا من أشعاركم أفيضوا في بعض ما يخف عليكم وتأنس به طباعكم فإن الأذن مجاجة والقلب ذو تقلب، وعن مالك بن دينار قال: كان الرجل ممن كان قبلكم إذا ثقل عليه الحديث قال: إن الأذن مجاجة والقلب حمض فهاتوا من طرف الأخبار. عن ابن زيد قال: قال لي أبي: إن كان عطاء بن يسار

ليحدثنا أنا وأبا حازم حتى يبكينا ثم يحدثنا حتى يضحكنا ثم يقول: مرة هكذا ومرة هكذا.

قلت: وما زال العلماء الأفاضل يعجبهم الملح ويَهَشون لها لأنها تجم النفس وتريح القلب من كد الفكر[1].

وقال الشيخ بكر أبو زيد في « حلية طالب العلم » – إجمام النفس –: خذ من وقتك سُويعات تُجِمُّ بها نفسَك في رياض العلم من كتب المحاضرات (الثقافة العامة)، فإن القلوب يروح عنها ساعة فساعة، وفي المأثور عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ أنه قال: « أجموا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان » [2]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في حكمة النهى عن التطوع في مطلق الأوقات[3]: « بل في النهي عنه بعض الأوقات مصالحُ أُخَرُ من إجمام النفوس بعضَ الأوقات من ثقل العبادة، كما يجم بالنوم وغيره، ولهذا قال معاذ: إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي » ، وقال[4]: «بل قد قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة، والله أعلم» أهـ.

ولهذا كانت العطل الأسبوعية للطلاب منتشرة منذ أمد بعيد، وكان الأغلب فيها يومَ الجمعة، وعصر الخميس، وعند بعضهم يوم الثلاثاء، ويوم الاثنين، وفي عيدي الفطر والأضحى من يوم إلى ثلاثة أيام وهكذا، ونجد ذلك في كتب آداب التعليم، وفي

(1) أخبار الحمقى والمغفلين (ص 13 – 17)

(2) جامع بيان العلم وفضله.

(3) مجموع الفتاوى (187/23).

(4) مجموع الفتاوى (217/23).

السير، ومنه على سبيل المثال: « آداب المعلمين » لسحنون (ص 104)، و« الرسالة المفصلة » للقابسي (ص 135 - 137)، و« الشقائق النعمانية » (ص 20)، وعنه في « أبجد العلوم » (195/1 - 196) وكتاب « أليس الصبح بقريب » للطاهر ابن عاشور، و« فتاوى رشيد رضا » (1212)، و« معجم البلدان » (102/3) و« فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (318/25 - 320 ، 329) [1].



(1) حلية طالب العلم (ص 185 - 186)

الفصل الحادي عشر
في مسيس الحاجة إلى علم القلب وتزكية النفس

قال العز بن عبد السلام: مبتدأ التكاليف كلِّها ومحلها أو مصدرها القلوب، وأول واجب يجب بعد النظر معرفةُ الله ومعرفة صفاته، وهي شرط في جميع عباداته وطاعاته، والطاعات كلها مشروعة لإصلاح القلوب والأجساد، ولنفع العباد في الآجل والمعاد إما بالتسبب أو بالمباشرة، وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب، ولذلك قال النبي ﷺ: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب، أي: إذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال صلح الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسدت بالجهالات ومساوئ الأحوال والأعمال فسد الجسد كله بالفسوق والعصيان[1].

وقال ابن القيم: فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى هملا بل جعلهم موردا للتكليف ومحلا للأمر والنهي، وألزمهم فَهْمَ ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا، وأعطاهم مواد العلم والعمل من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمةً منه وتفضيلا، فمن استعمل ذلك في طاعته وسلك به طريقَ معرفته على ما أرشد إليه ولم يَبْغِ عنه عدولا فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك ويحزَن حزنا طويلا، فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

(1) قواعد الأحكام 1/197 - 198

مَسْئُولاً ﴾ .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملِك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يَحُله، قال النبي ﷺ: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، فهو مِلكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلةُ لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته، كان الاهتمامُ بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون والنظرُ في أمراضه وعلاجها أهمَّ ما تنسك به الناسكون[1].

قال ابن الجوزي في « المنتخب »: أدواء القلوب تفتقر إلى أدوية كما تحتاج أمراض البدن إلى معالجة[2].

وقال الغزالي: فثمرة هذا العلم — يعني علم المعاملة – طبُّ القلوب والأرواح المتوصَّل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يُعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد[3].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: قدَّم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها[4].

---

(1) إغاثة اللهفان 5/1

(2) أبجد العلوم 532/1

(3) إحياء علوم الدين 4/1

(4) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 315)

وقال ابن تيمية: دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها[1].

وقال ابن الجوزي: عمل القلب أفضل من عمل الجوارح[2].

وقال الزركشي: العمل ينقسم إلى قلبي وبدني، والقلبي أفضل، ومن شرفه أنه لا يدخله الرياء وإنما يدخل الأعمالَ الظاهرة، والرياء آفة كل عبادة[3].

وقال ابن القيم: من تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح[4]، وقال: أعمال القلوب فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة[5].

وقال ابن القيم أيضا: معرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها[6].

إذا علمت أهمية أعمال القلوب وأحكامها فاعلم أن إصلاحك لقلبك هو أول طريق الطلب، فقد قال النووي: ينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب، وقالوا: تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة[7].

---

(1) مجموع الفتاوى 506/7

(2) تلبيس إبليس (ص 121)

(3) المنثور في القواعد 422/2

(4) بدائع الفوائد 710/3

(5) مدارج السالكين 101/1 بتصرف يسير جدا.

(6) بدائع الفوائد 705/3

(7) مقدمة المجموع 35/1

وقال صديق حسن خان: ومن الشروط: تزكية الطالب عن الأخلاق الردية، وهي متقدمة على غيرها كتقدم الطهارة، فكما أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب، كذلك العلم لا يدخل القلب إذا وُجد فيه كلابٌ باطنية، وكانت الأوائل يختبرون المتعلم أولا، فإن وجدوا فيه خلقا رديا منعوه لئلا يصير آلةَ الفساد، وإن وجدوه مهذبا علموه ولا يطلقونه قبل الاستكمال خوفا على فساد دينه ودين غيره[1].

وقال الأستاذ عبد الكريم زيدان: ومن العلم العزيز النادر الذي يغفُل عنه الكثيرون مع دلالة القرآن عليه وتصريحه به والدعوة اليه، **علم طريق الآخرة** الذي يهيج القلب ويزعجه ويدفعه إلى سلوكه، ويُشعر صاحبَه بغربته في الدنيا وقرب رحيله عنها إلى سفر بعيد لا يرجع بعده إلى دنياه، ولا ينفع فيه زاد إلا التقوى، ولذلك فهو دائما مشغول بإعداد هذا الزاد ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ ، متطلعا إلى ما هناك، إلى ما يؤول إليه أمره بعد سفره البعيد، أيكون مصيره إلى نار جهنم، وفي ذلك شقاؤه العظيم، أم يكون مصيره في دار النعيم بجوار الرب الكريم، إنه لهذه العاقبة المجهولة يكون دائما بين الخوف والرجاء، ولكنه خوف العارف لا الجاهل، ورجاء العامل لا الخامل.

إن هذا العلم هو الذي قلَّ وجوده بين الناس وبين طلاب العلم، وبدونه لا يُعتبر العا لم عالما وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام وملأ رأسه منها ورددها على لسانه، إن هذا العلم هو لُبُّ العلم وغايته وكل مسلم محتاج إليه والعالِم أشد حاجة إليه، والداعي أحوج من الجميع إليه، إن هذا العلم هو الذي نسميه « الفهم الدقيق » ، وهو الذي فقِهه الصحابة الكرام وأُشربت به عقولهم وقلوبهم فضنوا بوقتهم أن يذهب سدى في غير طاعة الله ودعوةٍ إليه، فنشِطت جوارحهم في العبادة والجهاد في سبيل الله والدعوة إليه حتى أتاهم من ربهم اليقين[2].

(1) أبجد العلوم 134/1

(2) أصول الدعوة (ص 327 - 328)

قال الإمام الغزالي: كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومُفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم﴾، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسَّلَم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يُقَسِّي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له، وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى(1).

قال محمد بن عبادة المعافري: كنا عند أبي شريح رحمه الله فكثُرت المسائل، فقال: قد دَرِنت قلوبكم، فقوموا إلى خالد بن حميد المهري استقلوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلوا المسائل، فإنها في غير ما نزل تقسي القلب، وتورث العداوة. قال الذهبي: صدق والله(2).

وقال ابن الجوزي: ومن ذلك أنهم – يعني الفقهاء – جعلوا النظرَ جُلَّ اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة، ومسائلُ الخلاف وإن كانت من علم الشرع إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب، ومن لم يَطَّلع على أسرار سير السلف وحال الذي تمذهب له لم يمكنهم سلوك طريقهم، وينبغي أن يعلم أن الطبع لِصٌّ فإذا تُرك مع أهل هذا الزمان سرَق من طبائعهم فصار مثلَهم، فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم، وقد كان بعض السلف يقول: حديث يرِق له قلبي أحب إليَّ من مائة قضية

(1) إحياء علوم الدين 32/1

(2) سير أعلام النبلاء 182/7 – 183

من قضايا شريح، وإنما قال هذا لأن رقة القلب مقصودة ولها أسباب[1].

وقال ابن الجوزي: تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به، فإذا هو يُقوِّي [في] القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه، فإذا تأملت باب المعاملات قَلَّ الأمل، ورق القلب، وجاءت الدموع، وطابت المناجاة، وغشيت السكينة، وصِرتُ كأني في مقام المراقبة، إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة، وأعلى رتبة، وإن حدث منه ما شكوتُ منه، والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها، فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم، فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعا لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم، فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أُكثر زيارة القبور، وأن أحضر المحتضرين، لأن ذلك يؤثر في فكري، ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر في الموت، ولا أنتفع بنفسي مدة.

وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي أن يُقاوَم المرض بضده، فمن كان قلبه قاسيا شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين، فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به، بل ينبغي له أن يتشاغل بما يُنسيه ذلك لينتفع بعيشه، وليفهم ما يفتي به، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة رضي الله عنها، ويتلطف بنفسه، فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام فهِم من مضمونها ما قُلتُه من ضرورة التلطف بالنفس[2].

---

(1) تلبيس إبليس (ص 107)

(2) صيد الخاطر (ص 160 - 161)

حكم تحصيل علم القلب

قال النووي: أما علم القلب، وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشِبههما، فقال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطِبِّها وعلاجها فرض عين، وقال غيره: إن رُزِق المكلف قلبا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يسلم، نظر، إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلمٍ لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوِه من غير تعلم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ، والله أعلم[1]، قال الشيخ علاء الدين الباجي رحمه الله في كتابه المسمى بـ «التقريب» – بعد أن قرر أن جهاد النفس فرض كفاية على كل مسلم بالغ عاقل –: وهذا ما لم يستولِ على النفس طُغيانُها وانهماكها في عصيانها، فإن كان كذلك صار جهادها فرض عين بكل ما استطاع، فإن عجز عنها استعان عليها بمن يحصل له المقصودَ من علماء الظاهر والباطن بحسب الحاجة، وهو أكبر الجهادين إلى أن ينصره الله تعالى[2].

قلت: وحجة أبي حامد الغزالي أن السلامة بعيدة المنال وأن هذه الأدواء لا ينفك عنها الإنسان، ودفعها متوقف على معرفة ماهيتها وطرق الخلاص منها، وهذا حاصلُ علمِ القلب.

قال رحمه الله: فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله ﷺ: « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع

---

(1) مقدمة المجموع 26/1

(2) المنثور في القواعد للزركشي 36/3، والأشباه والنظائر للسيوطي (ص 415)

وإعجاب المرء بنفسه » [1]، ولا ينفك عنها بَشَر، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكِبْر والعُجب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات، وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب، وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافةً اشتغالا بما لا يعني[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾: قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: المراد بالإثم: جميعُ المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلمُ بذلك واجبًا متعينا على المكلف، وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب،كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة[3].

فائدة: قال ابن القيم: رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدةً، مَن كمَّلها كمَّل مراتب العبودية، وبيانُها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كلٍّ منها عبوديةٌ تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

(1) قطعة من حديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر، وحسنه الألباني.

(2) إحياء علوم الدين 15/1

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 271)

قال زهران: ونحن سنكتفي بإيراد الأحكام المتعلقة بعبودية القلب لشديد مناسبتها لما نحن بصدده.

قال رحمه الله: فواجب القلب منه متفقٌ على وجوبه ومختلَفٌ فيه.

فالمتفق على وجوبه كالإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره، ونية العبادة لها مرتبتان: إحداهما: تمييز العبادة عن العادة، والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض، والأقسام الثلاثة واجبة، وكذلك الصدق، والفرق بينه وبين الإخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا، فالإخلاص توحيد مطلوبه والصدق توحيد طلبه، فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسما، والصدق أن لا يكون الطلب منقسما، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب، واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة، وكذلك النصح في العبودية، ومدار الدين عليه، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضيِّ له، وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين، وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان: واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين، وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكَر الله الصبرَ في تسعين موضعا من القرآن أو بضعا وتسعين، وله طرفان أيضا: واجب مستحق وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية، والقولان لأصحاب أحمد، فمن أوجبه قال: السُّخط حرام ولا خلاصَ عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب، واحتجوا بأثر: « من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربا سواي »، ومن قال هو مستحب قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة بخلاف الصبر فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه وكذلك

التوكل قال: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِين ﴾، وأمر بالإنابة فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُم ﴾، وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين ﴾، وكذلك الخوف كقوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْن ﴾، وقوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾، وكذلك الصدق قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾، وكذلك المحبة، وهي أفرض الواجبات إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها، وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مدح أهله والثناء عليهم لا الأمر به، قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي لا يحتج به، قالوا: وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا، وهو في بعض السنن، قالوا: وأما قولكم: لا خلاص عن السخط إلا به فليس بلازم، فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به وهو أوسطها، فالأُولى للمقربين السابقين والثالثة للمقتصدين والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر، وقد أشكل على بعض الناس اجتماعُ الرضا مع التألم وظن أنهما متباينان، وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواءِ الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به، وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بقضائه الكوني وأما الرضا به ربا وإلها والرضا بأمره الديني فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره، وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر

الفقهاء، واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته فيقول: اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى، ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبي ﷺ: إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ثلثها ربعها حتى بلغ عشرها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة، ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها فيقال: صلاة صحيحة مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد أن هذه الأعمال واجبَها ومستحبَها هي عبودية القلب، فمن عطَّلها فقد عطل عبودية المِلك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح، والمقصود أن يكون مِلك الأعضاء وهو القلب قائما بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه فالكبر والرياء والعجب والحسد والغفلة والنفاق، وهي نوعان: كفر ومعصية، فالكفر كالشك والنفاق والشرك وتوابعها، والمعصية نوعان: كبائر وصغائر، فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم وتوابعِ هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن، وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها، وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضا شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزا بعد بذله مقدورَه في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله فما بال المقتول ؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه، فنزَّله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب، وقد عُلِم بهذا مستحب القلب ومباحه[1].



(1) مدارج السالكين 110/1 – 114

يا طالب العلم عليك بتقوى الله

قال القاسم بن سلام: دخلت البصرة لأسمع من حماد بن زيد فإذا هو ميت، فشكوت ذلك إلى ابن مهدي، فقال لي: مهما سبقت فلا تسبقن بتقوى الله[1].

وروى البخاري في صحيحه – باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين – عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. قال الحافظ: وقد تتعلق الأحاديث الثلاثة بأبواب العلم بل بترجمة هذا الباب خاصة من جهة إثبات الخير لمن تفقه في دين الله، وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به، وأن من يفتح الله عليه بذلك لا يزال جنسه موجودا حتى يأتي أمر الله[2].

وقال ابن الجوزي: متى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فُتحت له أبواب لا تفتح لغيره[3].

وقال ابن الجوزي أيضا: من قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن ﴿ وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللّهُ ﴾ [4].

---

(1) ترتيب المدارك 208/3

(2) فتح الباري 164/1

(3) صيد الخاطر (ص 190)

(4) صيد الخاطر (ص 193)

قال ابن كثير: قوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ ﴾ كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾، وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾[1].

وقال الشيخ محمد علي الصابوني: **فائدة**: العلم نوعان: كسبي ووهبي، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ ﴾، وهذا العلم يسمى العلم اللدني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين[2].

تنبيه: قال أبو حيان الأندلسي: وكثيرا ما يتمثل بهذه بعض المتطوعة من الصوفية الذين يتجافون عن الاشتغال بعلوم الشريعة من الفقه وغيره، إذا ذُكر له العلم والاشتغال به، قالوا: قال الله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ ﴾، ومن أين تُعرف التقوى، وهل تعرف إلا بالعلم[3].

وقد قال النبي ﷺ: يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه. رواه الطبراني عن معاوية[4]، قال ابن حجر: والمعنى ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم[5].

---

(1) تفسير ابن كثير 727/1

(2) صفوة التفاسير 162/1

(3) البحر المحيط 742/2

(4) قال ابن حجر: إسناده حسن إلا أن فيه مبهما اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وقال الألباني: له طرق وشواهد تقويه. فتح الباري 161/1 ، وصحيح الترغيب والترغيب 136/1 ، وقال الألباني: فانظر « الصحيحة » (342).

(5) فتح الباري 161/1

وعليه فما أشار إليه الشيخ الصابوني وقبله الحافظ ابن حجر مما يفتح الله به على من شاء من عباده إنما هو مزية فهم للعلم الموروث عن النبي ﷺ.

وفي « الفكر السامي » لمحمد الحجوي: قال الإمام السنوسي في شرح مسلم عن أبي عبد الله بن الحاج: عجائبُ القرآن والحديث لا تنقضي إلى يوم القيامة، كل قرن لا بد أن يأخذ منها فوائد خصه الله بها لتكون بركة هذه الأمة إلى قيام الساعة، قال عليه السلام: «مثل أمتي كالمطر لا يدرى أوله خيرا أو آخره»، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه كما في الصحيح: « لم يترك لنا رسول الله ﷺ إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة، أو فهما أوتيه رجل مسلم »، وقال الشيخ أبو مدين: للقرآن نزول وتنزيل، فأما النزول، فقد مضى، وأما التنزيل فباق إلى قيام الساعة، وأما قوله:

لم يدع من مضى للذي غبر فضلَ علم سوى أخذه بالأثر

فإنها خيال شاعر ليست حجة عقلية ولا شرعية، أوجبها تأخر الأفكار الإسلامية وركونها للجمود، وقد قال فيه اليوسي في القانون: إنه لا أضرَّ بالعلماء والمتعلمين منه، وتحجير لفضل الله الذي لم يوقَّت بزمان ولا مكان، ويقابلها قول الشاعر الذي صدقه الأوائل والأواخر:

.... كم ترك الأول للآخر

قال زروق في « قواعده »: قاعدة: إن النظر للأزمنة والأشخاص لا من حيث أصل شرعي أمر جاهلي حيث قال الكفار: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم ﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّك ﴾، وقالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون ﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُم ﴾، فلزم النظر لعموم فضل الله من غير مبالاة بزمن ولا شخص إلا من حيث ما خصه الله به إلى آخر كلامه.

وقال أيضا: إذا حقق أصل العلم، وعرفت مواده، وجرت فروعه، ولاحت أصوله، كان الفهم مبذولا بين أهله، فليس المتقدم فيه بأولى من المتأخر، وإن كان له فضيلة السبق، فالعلم حاكم، ونظر المتأخرين أتم، لأنه زائد على المتقدم، والفتح من الله مأمول لكل أحد.

وفي « التسهيل »: وإذا كانت العلوم مِنَحا إلهية، ومواهبَ اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما عَسُر فهمُه على كثير من المتقدمين، أعاذنا الله من حسد يسد باب الإنصاف، ويصد عن حميد الأوصاف، وأشار إلى هذا المعنى في خطبة « القاموس » مستدلا بقول المبرة: ليس بِقِدَم العهد يَفضُل القائل، ولا بحدثانه يُهتضَم المصيب، ولكن يعطى كلٌّ ما يستحق.

... ويرحم الله ناصر الدين بن المنير إذ يقول: فضل الله واسع، فمن زعم أنه محصور في بعض العصور، فقد حجر واسعا ورُمي بالتكذيب، والليالي حبالى تلدن كل غريب[1].

يا طالب العلم عليك بذكر الله

قال القاضي عياض: من أحب شيئا أكثر ذكره[2].

وقال ابن القيم: ومنها – يعني علامات المحبة – كثرة ذكر المحبوب واللهَج بذكره وحديثه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه، ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا

(1) الفكر السامي 515/2 – 518

(2) الشفا بتعريف حقوق المصطفى 25/2

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [1]، والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابَهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء كما قال قائلهم:

ذكرتُك والخَطِيُّ يخطر بيننا   وقد نَهِلت منا المثقَّفة السُّمْر

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها   أشطانُ بئر في لَبان الأدهم

فودِدت تقبيل السيوف لأنها   برِقت كبارق ثَغرِك المتبسم

وفي بعض الآثار الإلهية: إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قِرنَه، فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرغب والرهب، وقال بعض المحبين في محبوبه:

يذكرنيك الخيرُ والشر والذي   أخاف وأرجو والذي أتوقع

ومن الذكر الدال على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحب ولسانه عند أول يقظة من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه، كما قال قائلهم:

آخر شيء أنت في كل هجعة   وأول شيء أنت وقت هبوبي

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم، فإنَّ ذكره بالقوة في نفس المحب، ولكن لضيق المحل به يرد عليه ما يغيب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبس المحب لسانه على ذكره ثم يحبسَ قلبه على لسانه ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره، وكما أن الذكر من نتائج الحب فالحب أيضا

---

(1) قال الشنقيطي في أضواء البيان 102/2: وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضيق الأوقات، وهو وقت التحام القتال، دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال ولا سيما في وقت الضيق، والمحب الصادق في حبه لا ينسى محبوبه عند نزول الشدائد، قال عنترة في معلقته:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي

وقال الآخر:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا   وقد نهلت فينا المثقفة السمر

من نتائج الذكر، فكل منهما يثمر الآخر، وزرع المحبة إنما يسقى بماء الذكر[1]، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة[2].

قال ابن القيم: وفي الذكر أكثر من مائة فائدة. قال: الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن. ثم قال: السابعة عشرة: أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرتُ شيخَ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلاما قريبا من هذا، وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاما هذا معناه[3].

وقال الدسوقي: ذكره تعالى يزيل ما قام بالقلب من الغم والكدرات، ويشرحه ويدخل السرور عليه[4]، ويزيل الكسل المانع للجوارح من العبادات والمانعَ للسان من القراءة والأذكار[5].

فائدة: قال ابن القيم: وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم، وإن كان ذكرهم إياه مراتب: فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيتِه بكليته بأحب الأذكار إليه، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضا وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر، وبعضها أحب إلى الله من بعض[6].

---

(1) قال ابن القيم: المحبة شجرة في القلب، عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصا. روضة المحبين (ص 409)

(2) روضة المحبين (ص 264 - 265)

(3) الوابل الصيب (ص 42)

(4) وقد ذكر ابن القيم من فوائد الذكر: أنه يزيل الهم والغم عن القلب، وأنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط. الوابل الصيب (ص 41)

(5) حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين للسنوسي (ص 17)

(6) روضة المحبين (ص 309)

وقال ابن حجر: الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكرُ بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالا، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالا، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال[1].

يا طالب العلم غُضَّ بصرَك

قال جرير بن عبد الله: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري. رواه مسلم. وقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة. رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وحسنه الألباني. وقال البخاري في صحيحه: قال سعيد بن أبي الحسن للحسن[2]: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن ؟ قال: اصرف بصرك عنهن.

قال ابن حزم: اعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملا، وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات[3].

---

(1) فتح الباري 209/11

(2) قال الحافظ: قوله (وقال سعيد بن أبي الحسن) هو البصري أخو الحسن، قوله (للحسن) أي لأخيه. فتح الباري 9/11

(3) طوق الحمامة (ص 137)

وقال ابن القيم: العين باب القلب[1]، وقال الشيخ زروق: ما حفظ أحد بصره إلا حفظ الله قلبه[2].

وقال ابن القيم: في غض البصر عدة فوائد، ثم قال: الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات وانكشفت له بسرعة ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه[3].

يا طالب العلم اهجر المعاصي

قال ابن القيم: للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصيةُ تطفيء ذلك النور[4]، وقال أيضا: المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نورا، والمعصيةُ تطفئ نور العقل ولابد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص[5].

وقد قال عبد الله ابن مسعود ﷺ: إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله[6].

وجاء في « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر في ترجمة (وكيع بن الجراح الكوفي) وهو أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، وقد كان الناس يحفظون تكلفا، ويحفظ هو

(1) روضة المحبين (ص 262)

(2) النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية.

(3) روضة المحبين (ص 102)، وغذاء الألباب للسفاريني 88/1

(4) الجواب الكافي (ص 34)

(5) الجواب الكافي (ص 39)

(6) جامع بيان العلم 675/1

طبعا « قال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط إنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ فقال: تركُ المعاصي، ما جربت مثلَه للحفظ » [1].

وجاء في « المستطرف » للأبشيهي: شكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشا يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وذلك أن حفظ العلم فضل وفضل الله لا يؤتى لعاصي [2]

وقال الإمام مالك للشافعي: اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن، وفي رواية أخرى أنه قال له: إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفه بالمعاصي [3].

وقد نقل الشافعي النصيحة عن شيخه مالك [4]، فقد حكى عنه النووي أنه قال: من أحب أن يفتح الله قلبَه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتنابِ المعاصي [5].

قال الشيخ ابن عثيمين: الذنوب من أكبر العوائق، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾، وهذا دليل على أن تولي الإنسان عن الذكر سببه الذنوب، ولكن مع الاستغفار وصدق النية ييسر الله الأمر.

واستنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أنه ينبغي للإنسان إذا نزلت به حادثة، سواء إفتاء أو حكم قضائي، أن يكثر

---

(1) تعليق الشيخ أبو غدة على رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص 155)

(2) المستطرف في كل فن مستظرف 52/1

(3) مقدمة المجموع 8/1

(4) قال الشافعي: مالك معلمي، وعنه أخذت العلم. سير النبلاء 75/8

(5) مقدمة المجموع 13/1

من الاستغفار، لأن الله قال: ﴿ لِتَحْكُمَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾، وهذا ليس ببعيد، لأن الذنوب تمنع من رؤية الحق، قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [1].

وقد جاء في « طبقات الحنفية » لعلي القاري: كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنبٍ أحدثتُه، وكان يستغفر، وربما قام وصلى، فتنكشف له المسألة، ويقول: رجوت أني قد تيب عليَّ، فبلغ ذلك الفضيل بن عياض، فبكى بكاء شديدا ثم قال: ذلك لقلة ذنبه فأما غيره فلا ينتبه لهذا[2].

وقال بعض قدماء أصحاب ابن تيمية وقد ذكر نبذة من سيرته: ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ فأستغفر الله تعالى ألف مرة أوأكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي[3].

يا طالب العلم احذر الكبر

قال النبي ﷺ: الكبر بَطَر الحق وغَمْط الناس. رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود. وغمط الناس معناه احتقارهم، وأما بطر الحق فهو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا[4].

---

(1) الشرح الممتع على زاد المستقنع 23/1

(2) تعليق الشيخ أبو غدة على رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص 155)

(3) العقود الدرية لابن عبد الهادي (ص 21 – 22)

(4) شرح النووي على مسلم 90/2

وقد قال وهب بن منبه: إن للعلم طغيانا كطغيان المال[1].

قال ابن الجوزي: انتقدت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يُبْطِنون الكبر، فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه، وهذا لا يعود مريضا فقيرا يرى نفسَه خيرا منه، حتى إني رأيت جماعة يُومَأ إليهم، منهم من يقول: لا أُدفَن إلا في دَكَّة أحمد بن حنبل، ويعلم أن في ذلك كسرَ عظام الموتى، ثم يرى نفسه أهلا لذلك التصدر، ومنهم من يقول: ادفِنوني إلى جانب مسجدي ظنا منه أنه يصير بعد موته مزارا كمعروف الكرخي، وهذه خَلَّة مهلكة ولا يعلمون، قال النبي ﷺ: من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر، وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه، والعَجَب كل العجب ممن يرى نفسه، أتراه بماذا رآها، إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العباد، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية، فإن قال: قد عرفت ما لم يعرف غيري من العلم في زمني، فما عليَّ ممن تقدم، قيل له: ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النصف، ولا يا فقيهُ أن ترى نفسك في العلم كالعامي، إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيرا من ذلك الشخص المؤمن وإن قل علمه، فإن **الخيرية بالمعاني لا بصور العلم والعبادة**، ومن تلمح خصال نفسه وذنوبَها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك، فالذي يُحذَر منه الإعجابُ بالنفس، ورؤيةُ التقدم في أحوال الآخرة، والمؤمن الحق لا يزال يحتقر نفسه، وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ، فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غيرِ الشرك أحب إلي من أن أرى نفسي أهلا لذلك، وقد روينا أن رجلا من الرهبان رأى في المنام قائلا يقول له: فلان الإسكافي خير منك، فنزل من صومعته فجاء فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمله، فقيل له في المنام: عُد إليه

(1) جامع بيان العلم 514/1

وقل له: مِمَّ صفرة وجهك ؟ فعاد فسأل فقال: ما رأيت مسلما إلا وظننته خيرا مني، فقيل له: فبذاك ارتفع[1].

وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض في ترجمة أبي إسحاق السبائي: ذكر له بعض أصحابه أنه مرَّ بموضع كذا، فإذا بشيخ لم ير أجمل منه، فقال له أبو إسحاق: لعلك قالت لك نفسك: إنك خير منه، والله ما أرى بي فضلا على أهل الكبائر من المسلمين[2]، فإذا رأيتم أهل البلاء، فاحمدوا الله على العافية، وذكر أن الرجل رؤي بعد ذلك قد تاب وحسن حاله[3].

وقال ابن القيم في « المدارج »: من علامات **الإنابة** ترك الاستهانة بأهل الغفلة، والخوفِ عليهم مع فتحك بابَ الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لا بد مستهينا بهم ماقتا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتا منك لهم، وكن لهم أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك، قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشدَّ مقتا.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شهد حقيقة الخلق وعجزَهم وضعفَهم وتقصيرَهم بل تفريطَهم وإضاعتَهم لحق الله وإقبالَهم على غيره وبيعَهم حظَّهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بُدا من مقتهم، ولا يمكنه غيرُ ذلك ألبتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحالِه وتقصيرِه وكان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشدَّ مقتا واستهانة، **فهذا هو الفقيه**[4].

---

(1) صيد الخاطر (ص 294 - 295)

(2) قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو جعفر الحذاء، سمعت الفضيل يقول: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادي، فقلت: إن كنت تظن أنه بقي على وجه الأرض شر مني ومنك، فبئس ما تظن. سير النبلاء 435/8

(3) ترتيب المدارك 65/6 - 66

(4) مدارج السالكين 438/1

وقال ابن القيم أيضا في « المدارج »: فصل في مشاهد الخلق في المعصية وهي ثلاثة عشر مشهدا

إلى أن قال: المشهد العاشر: **مشهد الرحمة،** فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب حتى لو قَدَر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه غضبا منه لله وحرصا على أن لا يُعصى، فلا يجد في قلبه رحمةً للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم، فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّي ونفسَه استغاث الله والتجأ إليه وتململ بين يديه تململ السليم ودعاه دعاء المضطر، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقةً وتلك القساوة على الخاطئين رحمةً ولِينًا مع قيامه بحدود الله وتبدل دعائه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفةً من عمره يسأل الله أن يغفر لهم، فما أنفعه له من مشهد، وما أعظم جدواه عليه، والله أعلم.

فيورثه ذلك المشهد الحادي عشر وهو: **مشهد العجز والضعف،** وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفُه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه، فيشهد قلبَه كريشة مُلقاةٍ بأرض فلاةٍ تقلبها الرياح يمينا وشمالا، ويشهد نفسَه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى، تجري عليه أحكام القدر وهو كالآلة طريحا بين يدي وليه ملقى ببابه واضعا خده على ثرى أعتابه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع لا يردها عنها إلا الراعي فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء، وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفهم

عنه لم يجدوا إليه سبيلا وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم بل هو نصيب من ظفِر به منهم، وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقا ويعرف ربه.

قال: والمقصود أن هذا المشهد يُعرِّف العبدَ أنه عاجز ضعيف فتزول عنه رعونات الدعاوى والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

فحينئذ يطلع منه على المشهد الثاني عشر وهو: **مشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار** للرب جل جلاله، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورةً تامة وافتقارا تاما إلى ربه ووليه ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتَها وإنما تُدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذي لا شيء فيه ولا به ولا منه ولا فيه منفعة ولا يُرغَب في مثله وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيِّمه، فحينئد يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه وعلم أن قدره دونه وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به وسياقتَه إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ورآها ولو ساوت طاعات الثقلين من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كلَّه، فما أقرب الجبرَ من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه، وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه، وذرةٌ من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدْلين المعجَبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلا من الله، قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب ؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب، فقلب

لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجودَ المراد منه، إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم وخشع الصوت والجوارح كلها وذل العبد وخضع واستكان ووضع خده على عتبة العبودية ناظرا بقلبه إلى ربه ووليه نظرَ الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرى إلا متملقا لربه خاضعا له ذليلا مستعطفا له يسأله عطفَه ورحمته، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبةِ محبوبَه المالكَ له الذي لا غنى له عنه ولا بد له منه، فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتي في رضاه وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره، وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ويربيه أحسنَ التربية ويُرقِّيه على درجات الكمال أتم ترقية وهو القيم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له فخرج عليه في طريقه عدوٌّ فأسَره وكتفه وشده وثاقا ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانَه إليه الفينة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ويتذكر ما كان عليه وكلَّ ما كان فيه، فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ويريد نحره في آخر الأمر إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه فرأى أباه منه قريبا فسعى إليه وألقى نفسه عليه وانطرح بين يديه يستغيث: يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه ! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعُه تستبق على خديه قد اعتنقه والتزمه، وعدوُّه في طلبه حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يُسْلمه مع هذه الحال إلى عدوه ويخلي بينه وبينه، فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها إذا فر عبد إليه وهرب من عدوه إليه وألقى بنفسه طريحا ببابه يمرغ خده في ثرى أعتابه باكيا بين يديه يقول: يا رب يا رب ارحم من لا راحم له سواك ولا ناصر له سواك ولا مؤويَ له سواك ولا مغيث له سواك،

مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجيك لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله   ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره   ولا يهيضون عظما أنت جابره[1]

وهذا آخر ما تيسر رقمه من هذا المدخل، أسأل الله أن يجعله نافعا لطلبة العلم معينا لهم على المسير في طريق الطلب، بلغني الله وإياهم أفضل الآمال، هو ولينا وإليه المرجع والمآل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

وكتب

زهران كاده

(1) مدارج السالكين 399/1 - 430